الباب السادس

القدس في العهد العثماني

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

الأتراك العثمانيون

أصل الأتراك ومواطنهم:

في منطقة ما وراء النهر والتي نسميها اليوم (تركستان) والتي تمتد من منطقة منغوليا وشمال الصين شرقا إلى بحر الخزر (بحر قزوين) غربا، ومن السهول السيبيرية شمالا إلى شبه القارة الهندية وفارس جنوبا، استوطنت عشائر الغز وقبائلها الكبرى تلك المناطق وعرفوا بالترك أو الأتراك. تحركت هذه القبائل في النصف الثاني من القرن لسادس الميلادي،وانتقلت من موطنها الأصلي نحو آسيا الصغرى في هجرات ضخمة، وذكر المؤرخون مجموعة من الأسباب التي ساهمت في هجرتهم، فالبعض يرى أن ذلك بسبب عوامل اقتصادية، فالجدب الشديد وكثرة النسل، جعلت هذه القبائل تضيق ذرعا بمواطنها الأصلية، فهاجرت بحثا عن الكلأ والمراعي والعيش الرغيد والبعض يعزو تلك الهجرات لأسباب سياسية حيث تعرضت تلك القبائل لضغوط كبيرة من قبائل أخرى أكثر منها عددا وقوة وهي المغولية، فأجبرتها على الرحيل، لتبحث عن موطن آخر وترك أراضيها بحثا عن نعمة الأمن والاستقرار وذهب إلى هذا الرأي الدكتور عبد اللطيف عبد الله بن دهيش. اضطرت تلك القبائل المهاجرة أن تتجه غربا، ونزلت بالقرب من شواطيء نهر جيحون، ثم استقرت بعض الوقت في طبرستان، وجرجان، فأصبحوا بالقرب من الأراضي الإسلامية والتي فتحها المسلمون بعد معركة نهاوند وسقوط الدولة الساسانية في بلاد فارس سنة 21 هـ / 641 م.[1]

دخل الأتراك الإسلام مبكرين فقد تم لهم ذلك في عهد الخلفاء الراشدين، وأصبحوا من المدافعين عنه والمشتركين في الجهاد لنشر دعوة الإسلام.

ازداد نفوذهم في عهد الخلافة العباسية فأسسوا لهم دولة إسلامية كبيرة كانت على صلة قوية بخلفاء الدولة العباسية عرفت بالدولة السلجوقية.

وقعت الخلافة العباسية السنية في بغداد بين فكي رحى النفوذ البويهي الشيعي في إيران والعراق والنفوذ العبيدي الفاطمي في مصر والشام، وكاد هذان العنصران يقضيان على الخلافة السنية العباسية،

(1) الصلابي، دكتور محمد علي، الدولة العثمانية، عوامل النهوض وأسباب السقوط، ط1 بور سعيد: دار التوزيع والنشر الإسلامية،2001م، ص 25.

بيد أن السلاجقة ساندوا هذه الخلافة العباسية ونصروها على هاتين الجبهتين، وقد استطاع طغـرل بـك أن يسقط الدولة البويهية في الشرق عام 447 هـ وأن يقضي على الفتن، وقد أنعم الخليفة العباسي عليـه بأن استقبله استقبالا كريما وخلع عليه خلعة سنية وأجلسه إلى جواره ولقبه بالسلطان ركن الدين طغـرل بك ونقش اسمه على العملة.

توالى سلاطين السلاجقة في الحكم بيـد أنهـم لم يعمـروا طـويلا وانتهـى دورهـم وانقـسموا إلى دويلات متناقضة عرفت فيما بعد بالأتابكيات.

obeikandl.com

المبحث الأول

قيام الدولة العثمانية

انتسب العثمانيون إلى قبيلة تركمانية، كانت عند بداية القرن السابع الهجري الموافق الثالث عشر الميلادي تعيش في كردستان، وتزاول حرفة الرعي، ونتيجة للغزو المغولي بقيادة جنكيز خان على العراق ومناطق شرق آسيا الصغرى، فإن سليمان جد عثمان هاجر في عام 617 هـ وفق 1220 م مع قبيلته من كردستان إلى بلاد الأناضول فاستقر في مدينة أخلاط، وفي عام 656 هـ / 1258 م ولد لأرطغرل أبنه عثمان الذي تنتسب إليه الدولة العثمانية، وهي السنة التي غزا فيها هولاكو المغولي بغداد عاصمة الخلافة العباسية.

أصبح عثمان المؤسس الأول للدولة العثمانية، وكان يتمتع بصفات كبيرة كالشجاعة والصبر والحكمة والإخلاص والعدل والجاذبية الإيمانية والوفاء والتجرد لله في فتوحاته، وقد سار على الدستور الإسلامي الجهادي المنيع، ترك عثمان بعد جهاد متواصل دولة قوية لها منفذ على بحر مر مرة واستطاع بجيشه أن يهدد أهم مدينتين بيزنطيتين في ذلك الزمان وهما أزنبق وبورصة.[1]

"جاء السلطان أورخان بعد أبيه عثمان واعتمد سياسة التوسع باتجاهين: أحدهما على حساب بيزنطة والآخر على حساب سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، فتمكن في عام 1326 م من فتح مدينة بورصة وجعلها عاصمة له.

يعد السلطان محمد الثاني (الفاتح) أعظم السلاطين العثمانيين، وواضع أسس الإمبراطورية العثمانية إذ تمكن سنة 1453 م من فتح القسطنطينية وجعلها عاصمة له، وأسماها إسلام بول (اسطنبول) وقام بالإصلاحات اللازمة في البلاد.

هذا تقديم مبسط عن وصول الأتراك العثمانيين، إلى هذه المرحلة من الحكم فأصبحوا بذلك قوة يرهب جانبها،ودولة تحارب تحت راية الإسلام.

أما على الجانب الآخر في الوطن العربي والعالم الإسلامي آنذاك، فقد كان مقسما إلى قسمين: قسم يشمل إيران والعراق، والذي تحت إمرة الصفويين، وهو القسم الذي تلقى الغارات المغولية، والقسم الآخر فهو مصر والشام الذي نجا من المغول بفضل الدولة المملوكية، حيث كان تحت الحكم المملوكي."[2]

(1) د علي محمد الصلابي مرجع سابق، ص 51 .

(2) ملحم، عدنان محمد وآخرون،التاريخ العربي الحديث والمعاصر، مركز المناهج الفلسطينية،2003 م ص 6.

المطلب الأول: القدس والسلطان سليم العثماني

لقد كان لمجريات الأحداث النصيب الأوفر من توجه العثمانيين صوب بيت المقدس، إذ أن السيطرة على هذه المدينة، عبر التاريخ يعتبر المفصل الهام في أي حكم من عهود الحكومات التي تستولي على الشرق، فالقدس مدينة لها عمقها العقدي والإستراتيجي والفكري، ولذا فإن السيطرة عليها يعتبر سيطرة هامة للأقطار المجاورة، لذا فإن السلطان العثماني سليم قد توجه بجيوشه صوب بلاد الشام ومصر لمحاربة المماليك.

التقى الجيشان العثماني والمملوكي بتاريخ 24 أغسطس وفق 1516 م في معركة في سهل مرج دابق، بالقرب من حلب، وكان يساند التفوق العسكري لقوات المشاة والمدفعية ذلك الانقسام في قيادة المماليك العليا، وقد هرب السلطان الغوري قائد جيوش المماليك فسقط صريعا وانتصر الأتراك على المماليك نصراً حاسما، ويصف ابن أبي السرور البكري نهاية ألغوري فيقول. " وأراد الهرب، فانقلب من على فرسه ومات، وراح تحت سنابك الخيل، فوقع النهب في عسكر الغوري، وزال ملكه على كذا لمح البصر، وقد أنشد بعض الشعراء في ذلك شعراً

أعجبوا للأشرف الغوري الذي مذ تناهى ظلمه في القاهرة

زال عنه ملكه في ساعة خسر الدنيا إذن والآخرة[1]

دخل السلطان سليم حلب من غير حرب، ومنها سار إلى حمص وحماه، ثم إلى دمشق ففتحها.

بعد أن احتل السلطان سليم الشام سار إلى فلسطين، والتقى بكتائب أخرى من جيش طومان باي قرب اللجون، فاحترب الفريقان فكان النصر هنا أيضا حليف الأتراك، فلم يبق أمام السلطان سليم ما يعيقه عن احتلال القدس، فاحتلها دون قتال، وقد حدد يوم دخولهم بأنه اليوم الثامن والعشرون كانون الأول 1516م الرابع من ذي الحجة سنة 922هـ وبعد هذا التاريخ بيومين توجه السلطان سليم صوب القدس الشريف وزار الأماكن المقدسة. أولم له أهل القدس ولجنده وليمة كبيرة في هنابي خشبية وأقاموا له الاحتفال في فناء الصخرة المشرفة، وقدم الهدايا لأعيان القدس جميعا وأعفاهم من الضرائب الباهظة وثبتهم في وظائفهم، كما أنه قرر تعمير السور الذي يحيط بالمدينة، وذلك لصد هجمات الجيوش المعادية عن القدس التي اعتادت أن تمر بفلسطين من أي اتجاه عبر بيت المقدس.

كان فتح بيت المقدس إنجازاً كبيراً لأهمية هذه المدينة، حيث تشرف بزيارتها والإقامة فيها فترة وجيزة في طريقة لمحاربة المماليك في مصر، فواصل المسير بإتجاه مصر.

(1) عمر، الدكتور عمر عبد العزيز تاريخ المشرق العربي، بيروت: دار النهضة العربي، 1984 م ص 76.

قام بتقسيم بلاد الشام إلى ولايات منها " ولاية دمشق " التي كانت تشمل سناجق، دمشق، القدس، غزة، صفد، نابلس، عجلون، اللجون، تدمر، صيدا مع بيروت والكرك مع الشوبك.

أظهر العثمانيون في هذا الوقت المبكر تقديراً خاصاً لأهمية بيت المقدس، فكان يحكمها حاكم أحيانا يلقب (أمير مران) أي أمير الأمراء وهو باشا بطوخين، ويتولى حكمها أحيانا أخرى أحد الوزراء وهو باشا بثلاثة أطواخ، وكانت الدولة تكتفي في بعض الأحيان بحاكم يلقب بتسلم يرسله باشا الشام. وكان عليه أن يرسل مالا معينا إلى الباشا في دمشق، مما يجمعه من ضريبة الأرض أو (الميري) ومن الجزية على أهل الذمة من العوائد المختلفة، [1]كانت تتبع سنجقية بيت المقدس ثلاث مدن، هي أريحا وتقع إلى الشمال الشرقي ثم بيت لحم والخليل ويقعان في الجنوب، أما مدن نابلس وعجلون وغزة فكان كل منها سنجقية قائم بذاتها تتبع باشا دمشق وكانت يافا تتبع غزه ميناء بيت المقدس.(2)

توجه السلطان سليم إلى مصر وانتصر على السلطان طومان باي في معركة الريدانية في يناير كانون الثاني 1517 م، فأصبحت الدولة العثمانية تضم بين أقاليمها منذ حكم السلطان سليم الأول. الأماكن المقدسة الإسلامية في الحجاز وعلى رأسها المسجد الحرام، حيث الكعبة الشريفة في مكة المكرمة، والمسجد النبوي الشريف مثوى الرسول الكريم (ﷺ) في المدينة المنورة، فضلا عن المسجد الأقصى المبارك في فلسطين، وهو أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين ومسرى رسول الله (ﷺ) مما أضفى على الدولة العثمانية الزعامة الدينية في العالم الإسلامي، وأضيف إلى ألقاب كل سلطان من السلاطين الدولة العثمانية لقب(حامي حمى الحرمين الشريفين)تأكيداً للزعامة الدينية للدولة على العالم الإسلامي السني، وأوقفت الدولة أوقافا كثيرة على الأماكن المقدسة الإسلامية في الحجاز، كما رصدت الدولة أوقافاً على المسجد الأقصى، وأقامت أسواراً على طرفيه الجنوبي والشرقي [3]

كانت الدولة العثمانية تثير العواطف الدينية في نفوس رعاياها المسلمين، وتصطنع وسائل الإثارة الدينية، وكان من بينها إقامة الاحتفالات الدينية الضخمة في المدينة المنورة ودمشق وبيت المقدس، بمناسبة نقل راية النبي (ﷺ) من المدينة المنورة إلى دمشق، ليتبرك بها الجيش العثماني الرابع في زحفه المرتقب على مصر. (4)

---

(1) الشناوي،الأستاذ الدكتور عبد العزيز محمد – الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج1؛القاهرة: .مكتبة الأنجلو المصرية مطبعة جامعة القاهرة 1982 م ص7

(2) المصدر نفسه – ج2 ص 978 .

(3) المصدر نفسه ج1 ص 22 .

(4) المصدر نفسه – ج1 ص 81 .

دخل السلطان العثماني سليم القدس فزار قبور الأنبياء، ورأى الأماكن المقدسة والآثار القديمة، وأتاه وهو في القدس سفير دولة أسبانيا يحمل رجاء ملكها، فقبل رجائه، وأتاح للنصارى الحج إلى بيت المقدس على شريطة أن يؤدوا الرسم الذي كانوا يؤدونه زمن المماليك.

اعتزم عمارة السور، بيد أنه رجع إلى عاصمة ملكه القسطنطينية، وتوفاه الله قبل أن يتمكن من تعميره.[1]

المطلب الثاني: القدس في عهد السلطان سليمان القانوني1520م–1566م

انتقل السلطان سليم إلى جوار ربه عام 1520 هـ، فتولى الحكم خلفا له ولده السلطان سليمان القانوني، وقد أولى (رحمه الله) القدس عناية فائقة ووجه الأنظار إليها، وقام بالعديد من الإصلاحات والإنجازات والإعمار الكثير فيها، فكان من أبرز الأعمال التي أنجزها ما يلي:

أولا: جدد عمارة السور حيث دامت العمارة فيه مدة خمس سنوات من عام(943هـ – 947هـ / 1536 م – 1540 م). وهناك أربع بلاطات مثبتة على أبواب سور مكتوب عليها تاريخ عمارة سور المدينة وهي:

أ) البلاطة الأولى فوق باب العمود، منقوش عليها التاريخ المبين سنة 944 هـ – 1537 م.

ب) البلاطة الثانية فوق باب الأسباط منقوش عليها تاريخ عملها 945 هـ – 1538 م.

ج) البلاطة الثالثة فوق باب الخليل.

د) البلاطة الرابعة فوق باب النبي داود منقوش عليها 947 هـ –1540م.

ثانيا: أمر بترميم قلعة باب الخليل، إذ يوجد نقشا على مدخلها من الناحية الشرقية نصه "أمر بترميم الحصنة الشريفة السلطان الأعظم والخاقان المعظم مالك رقاب الأمم مستخدم أرباب السيف والقلم خادم الحرمين والبقعة القدسية "قدّس الله أرواح آبائه المقدسة" منح الأمن والإيمان والأماني السلطان ابن عثمان سليمان الثاني مد الله بقاءه ما دامت القبة على الصخرة في سنة 938هـ – 1531 م". وعلى البرج القائم على يمين الداخل إلى المدينة من باب الخليل، بلاطة نقشت عليها الكلمات التالية " رسم بإنشاء هذا الربض من حمى ديرة الإسلام بشوكته وطوله ومحى جائرة الأصنام بقوته وحوله من خصه الله برقاب الملوك في الآفاق، وتملك سرير الخلافة بالاستحقاق السلطان ابن السلطان ابن السلطان ابن السلطان سليمان "

ثالثا: أمر بترميم بركة السلطان الكائنة على طريق المحطة جنوب باب الخليل.

رابعا: أمر بتعمير سبل المياه في المدينة المقدس وهي:

---

(1) العارف، المصدر نفسه، ص 103.

1 – السبيل الواقعة في الجهة الجنوبية من بركة السلطان.

2- أنشا السبيل الواقعة بباب السلسلة أمام المدرسة التنكيزية

3- أنشأ السبيل الواقعة في طريق باب الناظر قرب الأسباط سنة 943 هـ – 1536م وكتب على باب كل منها ما يلي " أمر بإنشاء هذا السبيل المبارك، مولانا السلطان الملك الأعظم والخاقان المكرم مالك رقاب الأمم سلطان الروم والعرب والعجم السلطان سليمان بن السلطان سليم خان، خلد الله ملكه وسلطانه، بتاريخ شهر محرم الحرام في سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة "

4- السبيل الواقعة في طريق الواد.

5- السبيل الواقعة في ساحة الحرم القدسي الشريف إلى الشمال من باب شرف الأنبياء، عند ملتقى الطريق المؤدية إلى طلعة التكية وباب الناظر من أبواب الحرم، وبالقرب من باب الأسباط سنة 943هـ – 1536 م وعند باب السلسلة، وقد طمست معالم هذه السبيل بفعل أحد الملاكين المجاورين، إذ أنه يعتقد بأن هذه السبيل قد بنيت في عهد الملك المملوكي الأشر ف قايتباي، وتم ترميمها في عهد السلطان سليمان القانوني.

6- ومن الأعمال التي أنجزت في عهده سبيل شعلان عامى1622م، حيث رممت هذه السبيل وقد بنيت في عهد الملك المعظم عيسى وجددت في عهد الأشرف برسباي.

خامسا: في عام 1542 م عمّر قبة الصخرة وأعاد تبليطها، وعمّر جدران المسجد الأقصى المبارك وأبوابه وسد الباب المعروف بالباب الذهبي في المسجد، وفتح الباب المعروف بباب ستنا مريم في المسجد، وعمّر الباب الغربي لقبة الصخرة المشرفة.

سادسا: في عام 969هـ – 1516م جدد القاشاني الذي نراه في قبة السلسة من الداخل.

سابعا: في عام 948هـ – 1540م أنشا الأمير بايرام جاويش الذي كان ناظراً، لبناء سور القدس المدرسة الرصاصية الملاصق إليها تكية خاصكي سلطان، وفوق مدخلها بلاطة مكتوب عليها بالنسخ العثماني وبأحرف بارزه واضحة " هذا المكان المبارك رباط وقفه لسكن الفقير الأمير بايرام جاويش بن مصطفى دام عزه بتاريخ عشرين ربيع الأول سنة سبع وأربعين وتسعمايه " وقد دفن فيه المدرسة، كما يوجد بلاطة أخرى في نفس البناية نقشت عليها الكلمات التالية " جدد عمارة هذا المكان المبارك بإيرام جاويش وجعله مكتبا لقراء الأولاد لله تعالى في سنة 947 هـ "

ثامنا: في عام 936 هـ أي في السنة التاسعة من سلطنة السلطان سليمان القانوني، حوّل مقام النبي داود إلى مسجد، حيث أن نقوش البلاطة التي على المسجد توضح ذلك " بسم الله الرحمن

الرحيم. أمر بتطهير هذا المكان وتنظيفه من المشركين وعمله مسجداً يذكر فيه اسم الله تعالى سلطان الأنام ناصر دين الإسلام خادم البيت الحرام، العدل والأمان السلطان بن السلطان سليمان من آل عثمان. أيد الله الإسلام في حياته على يد مولانا الشيخ أحمد الدجاني والساعي الشيخ محمد الواعظي العجمي، أجرى الله على يديه وذويه الخير، تاريخ 5 ربيع الأول 936هـ والحمد لله وحده.

تاسعا: تم في عهد إنشاء مسجد فوق جبل الزيتون(الطور) عام 1517م.

عاشرا: وفي سنة 945هـ 1538م بني محراب النبي غربي الصخرة إلى الشمال بينها وبين قبة المعراج.

حادي عشر: في عام 926هـ – 1520م عهد إلى آل أبي غوش بحراسة طريق القدس – يافا وأجاز لهم أن يحصلوا بعض العوائد من السياح النصارى الذين يسلكونها.

ثاني عشر: علاوة على أنه تم في عهده سك النقود وكتب اسمه عليها، فقد فرض على الحجاج النصارى رسوما يدفعونها للدولة لدى زيارتهم الكنائس في بيت المقدس. (1)

ثالث عشر: في سنة 1020 هـ وفق 1611 م بنى مسجد الحنابلة الواقع تحت المدرسة السلطانية غربي المسجد الأقصى المبارك.

رابع عشر: في سنة 1020هـ وفق 1611 م بنى جامع الحنابلة تحت المدرسة السلطانية غربي المسجد الأقصى المبارك.

خامس عشر: تكية خاصكي سلطان: "تم في عهده إنشاء التكية المعروفة بتكية "خاصكي سلطان" التي ما زالت تعمل حتى أيامنا هذه، في عقبة المفتي بجوار دار الأيتام الإسلامية الصناعية، فقد أرادت زوجته،الروسية روكسلانه أو (خرّم) بإنشاء هذه التكية عام1521م، وهي عبارة عن "رباط ومطبخ " وكانت مجمعاً بنائياً ضخماً يضم مسجداً وخاناً ورباطاً ومدرسةً ومطبخاً، وكان المطبخ وهو قائم الآن، وقد أعيد ترميمه حديثا يقدم مئات الوجبات إلى ضيوف الرباط والصوفية والطلبة والفقراء بشكل عام، وأنشأت خاصكي سلطان وقفا ضخما للإنفاق عليها، وقد ضم الوقف عدة قرى ومزارع في أربعة سناجق (ألوية) في سوريا وفلسطين، ومعظمها بجوار مدينة الرملة، وهكذا ضمنت للمؤسسة حياة طويلة، وقد وقف السلطان سليمان عليها بعد وفاة زوجته، أربع قرى ومزارع في ناحية صيدا.

(1) مصطفى مراد الدباغ، المصدر نفسه ج10 ص 8 .

كما هو معروف، فإن إيرادات الأوقاف كانت الشكل العادي والرئيس للإنفاق على المؤسسات الاجتماعية والتعليمية والدينية، وكذلك على المرافق العامة بوجه الإجمال، إذ أن الوظيفة الرئيسية للحكومة كانت تتمثل في الدفاع عن البلاد، وصيانة الأمن العام وجمع الضرائب.

ورثت القدس زمن الأيوبيين والمماليك عدداً كبيراً من الأوقاف التي وقفت على مصالح المساجد والمدارس والزوايا والتكايا والمستشفيات وغيرها من المرافق العامة،وقد لقيت هذه الأوقاف الرعاية في الفترة العثمانية التي زاد عددها، وتقدم لنا دفاتر التحرير العثمانية (طابو تحرير دفترلري)وسجلات المحكمة الشرعية في القدس معلومات غزيرة عن الأوقاف، ونحن نجد في دفتر التحرير العثماني رقم 522 وحده، وفي السنوات الثلاثين الأولى من الحكم العثماني ثلاثة عشر إدخالا لأوقاف مختلفة، عامة وخاصة، وقفت على مؤسسات (مكاتب "كتاتيب"، أربطة ومساجد وترب) أو على أشخاص (ذرية الواقف،وقراء القرآن وأرباب الطرق الصوفية والفقراء بوجه عام.

وفي النصف الثاني من القرن السادس عشر أنشئ عدة أوقاف مهمة، إضافة إلى وقفي خاصكي سلطان والسلطان سليمان القانوني المشار إليها أعلاه، وتشمل هذه وقفا آخر للسلطان على مصالح قناة السبيل كان يضم عدة قرى في منطقة الخليل.

غني عن البيان أن الوقف لعب دوراً هاماً في حياة القدس الاقتصادية، فقد أوجد وظائف لمئات الأشخاص، وزود مئات المنتفعين (المستحقين) بدخل ثابت، كما أنه أنعش كل فروع الاقتصاد،ولم يكن ليتسنى قيام مشروعات إنسانية كبيرة شهدتها القدس في القرن الأول للحكم العثماني دون إدارة اقتصادية على درجة من الكفاءة. "[1]

المطلب الثالث: التعداد السكاني في القدس في القرن السادس عشر

"إن عدد سكان القدس طيلة القرن السادس عشر لم يتجاوز أربعة عشر ألفا، ويبين الجدول التالي، المستند إلى دراسات برنارد لويس وأمنون كوهين لدفاتر التحرير العثمانية، تطور السكان في القرن السادس عشر بأرقام تقريبية:

(1) العسلي، الدكتور كامل جميل، (مقال)القدس تحت حكم العثمانيين، عمان : عمادة البحث العلمي، الجامعة الأردنية]، (القدس في التاريخ) 1192، ص 236.

السنة	المجموع	المسلمون	المسيحيون	اليهود
1525	4700	3100	600	1000
1538	7900	6000	750	1150
1553	13384	10100	1650	1634
1562	12650	9900	1550	1200
1596	7610	7300	210	100

ويتضح من هذا الجدول أن عدد سكان القدس بلغ أوجه في أواسط القرن السادس عشر، ثم بدأ في التناقص، وربما يرجع الانخفاض الكبير في سنة 1596م إلى النقص في الدفتر رقم 505، وأن عدد سكان فلسطين، وفقا لهذا الدفتر كان 206290 نسمه وعدد سكان سنجق القدس 42100نسمه.

إن الأكثرية الساحقة من السكان، كانت تتألف من أهالي المدينة المسلمين العرب، ولكن كانت هناك نسبة صغيرة من المسلمين، الذين اختاروا الإقامة في القدس، بعد أن وفدوا إليها من أقطار إسلامية وعربية مختلفة مثل المغرب وسوريا ومصر والعراق وتركيا والبوسنة (البشناق) والهند وفارس، وعدة أقطار أخرى في آسيا الوسطي [1]

أما المسيحيون فكانوا يعتبرون طوائف مختلفة، أما اليهود فقد تسامت الحكومة العثمانية في استيعاب أعداد منهم، سيما بعد أن طردوا من الأندلس سنة 1492 م، لأنهم لم يستطيعوا أن يتعايشوا تحت أي حكم إلا في ظل الدولة الإسلامية، التي تعطي جميع الأديان والملل حقها في العيش، وتحفظ حقوقها المدنية والدينية.

ولهذا فإن القدس قد حظيت في عهد هذا السلطان1061 هـ وفق 1651م باهتمام بالغ، ولا أدل على ذلك من الإنجازات والمشاريع التي تمت في عصره، والمنشآت التي أنجزت ولا زالت حتى وقتنا الحاضر، إذ يعتبر عصر السلطان سليمان القانوني عهداً زاخراً بالأحداث وهاما بالنسبة لبيت المقدس لاهتمامه الخاص بها.

المطلب الرابع: القدس في عهد السلطان أحمد الأول بن محمد الثالث 1630 م

عرف الناس في عهده التبغ لأول مره واستعملوه في هذه البلاد، كما أنه حرّم بيع الخمور في القدس وفي جميع أنحاء السلطنة.

(1) كامل العسلي، المصدر نفسه ص 238.

المطلب الخامس: القدس في عهد السلطان مراد الرابع

ومن الأحداث البارزة في عصره، أنه حرم على الناس شرب القهوة وتدخين التبغ، واختل الأمن في عهده فنشط اللصوص، وقطاع الطرق، فأخذوا يسلبون الناس أمتعتهم ونقودهم، ويعتدون عليهم، ويخربون ينابيع المياه، حيث أمر ببناء قلعة سميت باسمه "قلعة مراد" عند برك سليمان الواقعة على الطريق الموصل من القدس إلى الخليل، وأقام عليها حراسا (دزدارا) وأربعين جنديا بمدافعهم وأسلحتهم ومهماتهم الحربية، وقد أنشأ داخل هذه القلعة مسجداً وخمسين منزلاً صغيراً لسكن الجنود[1]

المطلب السادس: القدس في عهد السلطان محمد الرابع 1948م

تم في عهد هذا السلطان الإنشاءات التالية في القدس وهي:

أولا: في عام 1651 م تم أنشا المصلى الكائن بجانب سبيل شعلان، والمكتوب على محرابه هذه الكلمات "باسمه تعالى لله محراب فضل عن كل نقص محاسن أرخت شاد بناء بأمر يوسف باشا"

ثانيا: في عام 1655 م تم بناء المئذنة الكائنة بداخل القلعة، وعلى هذه المئذنة بلاطة منقوش عليها بالخط المعلق الأبيات الشعرية التالية.

صاحب خيرات وحسنات وسخا ... مظهر أنعام ورضاي خدا

خوب حاصلات وع مل يسند ... يعني سلح دار محمد باشا

حضرت داود مقامنده ... أيلدي برمأذنة خوش بنا

تاريخي منارة زيارة ... بأيدي سلح دار محمد باشا

المطلب السابع: القدس في عهد السلطان محمود الأول

تم في عهد السلطان محمود الأول تجديد بناء حائط الخندق، وكان هذا قد تهدم، تم تجديد عمارة المسجد الواقع في القلعة سنة 1738 م حيث يوجد نقش حجري على باب البرج من الجهة الشرقية بالنسخ العثماني كما هو مبين أدناه.

"جدد بناء حائط هذا الخندق بعد انهدامه في خلافة سلطان الإسلام والمسلمين قامع الكفرة والمشركين، السلطان محمود بن المرحوم السلطان مصطفى خان من آل عثمان أيد الله ملكه، بعرض إلا علام من حضرة الدستور المكرم عبد الله باشا محافظ الشام وأمير الحج الشريف، حين زار القدس، وجاء

(1) عارف العارف، مصدر سابق، ص 267.

الفرمان خطابا لمتسلمه الحاج مصطفى أغا بر وانه زاده، فباشرها بنفسه، وأتم عمارتها. جزاه الله خيرا في شهور سنة أربعة وأربعين ومائة وألف (1734 م).

المطلب الثامن: القدس في عهد السلطان مصطفى الثالث 1171هـ - 1187هـ/1757م-1773م

من الحوادث الهامة في عهد هذا السلطان التي وقعت في القدس الشريف الفتنة التي حدثت عام1757 م، في كنيسة القيامة بين الروم الأرثوذكس والإفرنج، وقع على إثرها الكثير من الجرحى ونهبت قناديل وغير ذلك، ولما رفع الأمر إلى الباب العالي، وكان راغب باشا أحد ولاة القدس السابقين صدراً أعظماً، فاز الأروام على خصومهم وشدت الحكومة من أزرهم، وسلمتهم جميع الأماكن المقدسة.

تحدث (الخوري ميخائيل بريك الدمشقي) في ص 60 من كتابه(تاريخ الشام) 1720 م – 1782 م عن هذه الفتنة نقتطف ونلخص منها ما يلي:

"وأما أحوال القدس في العام الماضي (1757 م) حصل شرور وفتن بين الروم والإفرنج، وفي ليلة أحد الشعانين قام الإفرنج ومن تبعهم، وكبسوا القيامة الشريفة ومن كان فيها من الروم وصار جرحى كثيرون، ونهب قناديل وغير ذلكن والحاكم مسك بالليل من وجد، وارتفعت الشكاوى للدولة العلية (لاسلامبول) ولم يزل الروم تدفع دراهم والإفرنج كذلك، إلى أن تكلفت الروم نحو ألف كيس دراهم، وفي هذه السنة (1757 م) انتصرت الروم، وحضر لهم خط شريف بأن يضبطوا جميع الأماكن المقدسة، ولا يكون للإفرنج سلطة على مكان سوى ديرهم فقط، وتسلم طائفة الروم جميع الأماكن المقدسة"[1]

المطلب التاسع: القدس وغزو نابليون بلاد مصر وفلسطين

بعد عهد السلطان مصطفى الثالث، توالى عدد من السلاطين العثمانيين على سدة الحكم، فكانت القدس من ضمن الولايات التي تحكم من قبل هؤلاء الحكام، ومن المعلوم ان هذه الفترة من الحكم التركي قد انتابها الخلل وسوء الإدارة، وتدخل الولاة في شؤون الدولة العلية، مما تسبب عن ظهور العديد من الحركات الانفصالية، التي بدأت تطل برأسها في جسم الدولة العثمانية، ففي عهد السلطان سلم الثالث بن السلطان مصطفى الثالث جرت حوادث هامة منها:

أولا: ظهور حركة التمرد التي قام بها أحمد باشا الجزار: حيث كان والياً على ولاية بيروت فأعلن عام 1776 م حالة العصيان على الدولة العثمانية، بيد أن حركته قمعت،إلا أن الحكومة العثمانية

(1) مصطفى مراد الدباغ، المصدر نفسه، ص 10.

ولته على بلاد الشام ففلسطين حتى حدود غزة، فكان لهذا الإجراء مبرراً لتدخل نابليون بونابرت لاحتلال هذه البلاد، وقد قام بغزو فلسطين بعد أن هاجم مصر وقد صمد الجزار في وجه نابليون مدة شهرين، في مدينة عكا الحصينة، وارتد عنها نابليون خاسراً.

أما القدس فلم يهاجمها نابليون بحجة أنها بلاد جبلية، واهتم فقط بمهاجمة المواقع العسكرية، وتسلم رسالة من أهل القدس تشير إلى أنهم يتبعون إلى عكا، وأن من تكون له الغلبة على عكا تكون القدس تابعة له حيث أنها بلاد تفيض بالأماكن المقدسة.

اندحر نابليون عن أسوار عكا شر اندحار، فعاد إلى بلاده فرنسا، واستمر الحال على وضعه في هذه الديار.

المطلب العاشر: القدس في عهد السلطان محمود الثاني 1223- 1255 هـ 1808- 1839م

تم في عهد هذا السلطان فتوحات إبراهيم باشا بن محمد علي باشا والي مصر، في بلاد الشام والجزيرة، وقد كان من أبرز آثار هذه الفتوحات، على الصعيد السياسي، احتدام التنافس بين العنصرين العربي والتركي، وقد انتهى بانسحاب إبراهيم باشا من سوريا سنة (1840 م) وعلى الصعيد الثقافي، انتشار التعليم الذي أدخله إبراهيم باشا، فقد كان نظاماً هادفاً إلى إيقاظ الوعي القومي العربي.

عمرانياً: وعلى هامش الإصلاحات التي حدثت في مدينة القدس فقد جدد حاكم يافا، محمد ابو نبوت، مباني المدينة وأقام فيها سداً ضخماً وجامعاً وسبيلاً يعرفان باسمه، وفي عدة أماكن من فلسطين، جرت إصلاحات عمرانية منها تعمير قرى مهدمة، وكذلك الأبنية والقنوات في عكا بعد حرب نابليون ومنها إصلاح الطرق والمسجد الأقصى المبارك، الذي أضيفت إليه النقوش، أما قبة مسجد الصخرة، فقد دعمت في عهد ابنه السلطان عبد المجيد، مع إضافة عمارات جديدة إلى الحرم الشريف لم يبن مثلها منذ عهد عبد الملك بن مروان [1]

أبرز الأحداث التي وقعت في القدس في هذه الفترة هي:

1- ثورة الإنكشارية: قام الجنود الإنكشاريون بتمردهم، إثر إحلال جنود محلهم في القلعة،قلعة القدس، وأخذوا يعيثون فساداً في المدينةن فهجموا على كنيسة القيامة، التي أخذ الروم في تجديد بنائها إثر أحداثها عام 1808 م، وقتلوا وجرحوا بعض من وجدوهم فيها، وطردوا المتسلم منها واعتصموا في القلعة، ولما علمت دمشق بما جرى، استنجد واليها بسليمان باشا والي عكا الذي أصدر الأوامر اللازمة بتجريد حملة لتأديب العصاة بقيادة الأغا محمد ابو زريعة مغربي، وأمر بفتح القدس وقطع دابر الفتنة ، وبعد وصول الحملة إلى القدس أخذ

(1) بيان نويهض الحوت، المصدر نفسه، ص 130.

العفيفي رئيس الإنكشارية، وأبو زريعة والتسلم وغيرهم، ينصحون المتمردين بالخلود إلى السكينة، ولكنهم لم ينتصحوا مما اضطر قائد الحملة أن ينكل بهم تنكيلاً شديداً. "دخل الجنود على الثائرين فقتلوهم عن آخرهم وقطعوا رؤوسهم مع غروب الشمس، وأمر قائد الحملة المتسلم والعفيفي أن يخنقوا من بقي منهم، وعند الصباح جعل جثثهم صفاً واحداً خارج باب الخليل، فندبهم ذووهم وأودعوهم التراب". وقد بلغ عدد الرقاب ستة وأربعين رقبة.[1]

2- إعمار قناة السبيل: في عام 1227 هـ 1812 م،عمر متسلم القدس أحمد آغا قناة السبيل التي تجري فيها مياه برك سليمان إلى القدس.

3- ترميم المسجد الأقصى المبارك: قام سليمان باشا والي إيالة صيدا وطرابلس الشام عام 1233 هـ 1816 م بترميم المسجد الأقصى على نفقته الخاصة، ويصف لنا إبراهيم العورة في كتابه (سليمان باشا العادل) ص 202 – 297 ونلخصه بما يلي:

"نزل القدس الشريف في عام م1232 هـ بقصد التبرك وزيارة الأماكن المقدس (كوساكيخيا) أحد كبار رجال الدولة، ولما زار الحرم الشريف أطلعه المسئولون على بعض الخراب الذي لحق بالمسجد الأقصى، والحاجة الماسة إلى ترميميه، ولما عاد (كوساكيخيا) إلى اسطنبول عرض الأمر على السلطان محمود، على أن تكون النفقات اللازمة تدفع من أموال سليمان باشا." فالملك استمال لأقوال الكيخيا، ورغب عمل هذه الخيرية خصوصاً لما تأكد أن يكون عملها براني، فحالاً أصدر همايونا بهذا الخصوص، وبموجبه أصدر فرماناً ملوكياً مستطيل الشرح حاوياً عبارات متنوعة ومن جملتها المديح والثناء بحق سليمان باشا، ولأجل حسن صداقته صار معتمد السلطنة السنية، وتوكل من طرف ملوكانيته عمل هذه الخيرية الجسيمةن وهي عمرا وترميم محلات عرش الله الأدنى وتنظيمها كالواجب."

أخفى سلميان باشا امتعاضه من هذا الأمر لكثرة النفقات التي تتطلبها التصليحات، وقلة ما لديه من أموال، إنما اضطر أن يظهر سروره وأمر إرسال بعض رجاله للكشف عن الإصلاحات المطلوبةن وسلمهم مرسوماً إلى جميع سكان القدس، ذكر لهم فيه محتويات الأمر السلطاني، وطلب منهم مساعدتهم بتسهيل من عَهِدَ إليهِ بالقيام بهذا العمل الخيري.

(1) العوره،عادل،خلاصة تاريخ كنيسة أورشليم الأرثوذكسية 182-184 وتاريخ ولاية سليمان باشا، 88-89 في حوادث سنة 1223 هـ .

اجتمع القاضي والمفتي والنقيب والمتسلم ومحافظ القلعة والوجوه والأهالي وأرباب التكلم وخدمة المحلات الشريفة وتلي عليهم الأمرن أظهر المجتمعون اغتباطهما بما جاء في المرسوم وأبدوا استعدادهم ببذل كل مساعدة لإنجاز الترميم المطلوب.

كشف المختصون من مهندسين وبنائين على الخراب الواقع على المسجد الأقصى، وقروا" وجوب تغيير سقوفه الثلاثة، المحلات ورفايفها على الداير وتغيير سقوف الأروقة جميعها وتغيير الرصاص الموجود على ساير الأسطح، لكونه من طول الأيام تلف، وتغيير الكاشاني الموجود، لكونه ما عاد ينفع، وتجديد ساير الدربزينات والأشياء الموجودة، وأوضحوا مساحة المحلات طولاً وعرضاً لأجل جلب الجسور اللازمة قدر الاحتياج، ثم عملوا دفتر بعلم اللوازم بقدر الإمكان تحت الزيادة والنقصان، وقدموا الدفتر إلى سليمان باشا."

وعلى إثر ورود هذا التقرير لعكا، طلب سليمان باشا من الأمير بشير الشهابي حاكم الجبل ومن متسلم بيروت، أن يقوم كل بدوره بإجراء ما يقتضي القيام به، وإرسال المطلوب من جسور وأخشاب وغيرها بالسرعة، إلى يافا محملة على سفن خاصة، بأسرع ما يمكن، ومن جهة ثانية أرسل الباشا إلى متسلم يافا أبي نبوت، أن يعمل بكل طاقاته لإرسال الأغراض المذكورة بأقصى سرعة ممكنة إلى القدس، (وأمر أن بحضور الجسورة والقرط وألواح يدبر بالحال والجمال والزلم اللازمة لأجل مشالها وأخذها إلى القدس بدون أدنى تأخير وشدد عليه بذلك وحذره غاية الحذر من الإعاقة والإهمال)

قاسى أهل البلاد مشقة عظيمة في نقل هذه الأدوات، لأن الجسور المطلوبة كانت واهية بطولها وسمكها وجانب من الجمال في جبل لبنان وفي بلاد غزة والرملة ويافا هلكت بسببها. والغاية حصل بأمرها مشقات كلية وضجت سائر الرعايا من جرائها.

وحول الكاشاني اللازم، رؤى إنشاء معمل له بالقدس، وعين له الموظفون والإداريون وأوتي له بالصناع المهرة، والأدوات اللازمة من الشام، كما جلب التراب اللازم من مغارة بالقرب من إنطاكية، وبعد أن تم صنع الكاشاني نقشت عليه الكتابات الجميلة ... وهكذا انتظمت ساير المحلات الشريفة، بما يلزم لها من التعمير والترميم والزينة بزيادة عن هيئتها الأصلية أضعافا مضاعفة.

وهناك في المسجد الأقصى فوق رقبة القبة وتحت الشبابيك غير النافذة كتابة كتبت بالخط الثلثي تقول: "بسم الله الرحمن الرحيم. جدد ترميم هذه القبة الشريفة مولانا سلطان البرين وخاقان البحرين وخادم الحرمين الشريفين وهذا المسجد الأقصى أولى القبلتين المجاهد في سبيل الله تعالى المخفوف بعناية الله المعبود مولانا السلطان محمود خان بن السلطان عبد الحميد خلد الله ملكه مدى الزمان. وذلك عن يد الوزير صاحب الخيرات والتدبير سعادة الحاج سليمان باشا والي إيالة صيدا وطرابلس الشام أدام الله

دولته وإجلاله وذلك عن سنة ثلاث وثلاثين ومائتين وألف من هجرة من له العز والشرف صلى الله عليه وسلم. بقلم الضعيف مصطفى علي أفندي المأمور من جانب الدستور."

4 – تجديد رخام الصخرة المشرفة:

لم يكتف سلمان باشا بترميم ما رمم في المسجد الأقصى وقبة الصخرة، فقد رأى (رحمه الله)بناء على طلب سدنة مقام النبي داود ترميم وتعمير هذا المقام، ونقشت على باب زاوية النبي داود الكلمات التالية: "جدد تعمير هذا المكان الشريف والبناء الساطع المنيف مع ترخيم الروضة بالرخام اللطيف مولانا السلطان الأعظم السلطان محمود خان خلد الله ملكه وسلطنته وزاد بالتوفيق أيامه وأحكامه، وذلك على يد سعادة الدستور الوزير صاحب الحسنات والخيرات الحاج سليمان باشا بلغه الله ما شاء والي صيدا. بمباشرة مصطفى علي أفندي المأمور وذلك في سنة 1233 هـ"

وقد كلفت هذه الأعمال الخيرية في القدس سليمان باشا "زيادة عن سنة وتسعة أشهر. وبالمقايسة تكلف زيادة عن أربعة آلاف كيس وجعل هذه الخيرية في صحيفة السلطان وصحيفته."

5- تغيير الزي:

علاوة على الإصلاحات التي تمت في عهد هذا السلطان في ديار بيت المقدس، فإن للعادات والزى الأثر الواضح في حياة الناس، في جميع نواحي السلطنة العثمانية، ومن ضمنها بيت المقدس، فقد تأثر أهالي هذا البلد كالآخرين بالزى الذي فرضه السلطان محمود الثاني على رعايا الدولة، حيث تم اتخاذ اللباس الإفرنجي والطربوش بدلا من العمامة وكان ممن اقتدى بهذا السلطان أهالي بيت المقدس كبقية مناطق الدولة. (1)

يتضح لنا مما سبق أن السلطان محمود الثاني، أصبح بعد أن قضى على الإنكشاريين حراً في تطوير جيشه، فترسم خطى الحضارة الغربية، وأسس وساماً دعاه وسام الافتخار، فكان أول من فعل ذلك من سلاطين آل عثمان.(2)

6- **أمر المسيحيين الأرثوذكس** بألا يعمروا أي قسم من كنيسة القيامة أو أي معبد من معابدهم، إذ كان يكرههم كرها شديدا، والسبب في كرههم راجع إلى اعتقاده بأن رهبان دير الروم حرضوا أبناء جنسهم في المورة عندما ثار هؤلاء على السلطة التركية، حتى أن السلطان أرسل إلى نائب القدس في ذلك الحين السيد محمد علي الخالدي فرماناً يقضي بقتل الرهابين، ولكن النائب أخر تبليغ الفرمان، ولم ينفذه، فقدر الرهبان صنيعه هذا، وراحوا يكرمون النائب وأولاده حيثما

(1) مصطفى مراد الدباغ، المصر نفسه، ج10 ص 15 .

(2) الدكتور علي محمد الصلابي، مصدر سابق ص341.

وجدوهم، وفي دير الروم بالقدس صورة زيتية للسيد محمد علي الخالدي، لا تزال معلقة في بهوه الكبير إلى يومنا هذا.

أما اللاتين فكان السلطان يحبهم، وسمح لهم ببناء غرف جديدة في ديرهم، كما سمح لهم بتعمير القسم الذي يخصهم في كنيسة القيامة، وقد أمر المسلمين من سكان بيت المقدس أن يخلعوا من على رؤوسهم (القاووقه) التي كانوا يلبسونها من عهد السلطان الملك المعظم عيسى.

نورد هنا ما أورده مؤرخنا الكبير المرحوم (عارف العارف) في كتابه "المفصل في تاريخ القدس" نص أمر تلقاه أهل القدس في زمن السلطان محمود الثاني، ففيه ما يرشدنا إلى نوع المشاكل التي كانت تشغل بال الحكام في ذلك الزمان وصنوف الموظفين الذين كانوا يديرون دفة الحكم في مخابراتهم الرسمية، حيث اطلع على سجلات المحكمة الشرعية في القدس على أمر أرسله عبد الله باشا من عكة وقد خاطب فيه سكان المدينة وأئمتها ووجوهها وكبار موظفيها، فقال:

" صدر الموالي العظام عمدة العلماء الكرام ونخبة الفضلاء الفخام، أولى ولاية الموحدين معدن الفضل واليقين رافع أعلام الشريعة والدين وارث علوم الأنبياء والمرسلين قاضي محروسة القدس الشريف، حالا أفندي زيدت فضائله وافتخار العلماء الكرام ونخبة الفضلاء الفخام المأذون بالإفتاء أفندي، زيد علومه وفرع الشجرة الزكية وطراز العصابة الهاشمية، قيم مقام نقيب الأشراف أفندي زيد شرفه وافتخار المشايخ المكرمين متسلمنا في سنجق القدس الشريف حالا الشيخ سعيد المصطفى زيد مجده وقدوة الأماجد والأعيان وكيل التكية العامرة في القدس الشريف حالا علي أفندي زاده آغا زيد مجده وقدوة الأماجد والأعيان ميرا لاي حالا آغا زيد مجده وقدوة الأماثل والأقران توفكجي باشى حالا آغا زيد قدره ومفاخر أقرانهم أئمة وعلماء وخطباء وأئمة ووجوه البلدة وأرباب التكلم بوجه العموم.

تحيطون علما أنه الآن أبقينا وقررنا متسلمية سنجق القدس الشريف، وتوابعها لعهدت الشيخ سعيد المصطفى الموصى إليه فيلزم كل منكم أن تعرفوا أنه مبقى ومقرر على متسلمية السنجق من طرفنا فليكون فيما بينكم مسموع الكلام مرفوع المقام ولا أحد يخرج له من خلاف بما فيه الصالح والعمار وإنفاذ أوامرنا. ونخبر متسلمنا الموصى إليه أنه يلزم منك أولا (تكون) دائما مطابق كافة أمورك إلى الشرع الشريف والقانون المنيف وتسعى براحة الرعايا خصوصا رعيانا أهل بيت المقدس، تبذل غاية جهدك (للسعي) ودوام رفاهتهم وكذلك تسعى بعمار القرايا،ورفاه أحوال البرايا واستجلاب دعوا تهم الخيرية بدوام سرير سلطنة حضرت مولانا سلطان السلاطين وخاقان الخواقين ظل الله المبسوط على العالمين مولى ملوك العرب والعجم ومسبب راحة وأمن بني آدم سليمان الزمان واسكندر العصر والأوان المحمود بكل آن وأوان خلد الله سرير خلافته العظمى وأيد تخت مملكته الكبرى إلى انتهاء الزمان

وإنقضاء الدوران (وتشمر على ساعدك اهتمامك في أمور) الضبط والربط والطلوع من حق كل معتدي ومتجاوز الحدود وتسعى غاية السعي بردع السفهاء وصيانة وراحت ذوي العرض ولا تعطي ذلك أدنى غفلة ولا مسامحة ودائما تكون مساعي ومجتهد (لإنقاذ أوامرنا) وكلما فيه رضانا بإبراز الخدمة الصادقة المرضية التي تخولك دوام بياض الوجه لك. وجميعكم تكونوا مباشرين أشغالكم وأعمالكم وتسعوا أسباب مكاسبكم وعمار محلاتكم وتكثروا متاجركم، وإن شاء الله تعالى هذه السنة (تكون) أبرك السنين والأعوام على كافة العباد والبلاد والجميع من رعيانا ما يشاهد من طرفنا إلا الحماية والصيانة وبسط جناح الراحة و(الرفاه) من سائر الوجوه، فبناء على ذلك أصدرنا لكم بيور لدينا[1] هذا من (ديواننا) في قلعة النصر داخل دار الجهاد محروسة عكا المحمية عن يد رافعة فبوصوله لكم وإطلاعكم على مضمونه نتلوه علنا على رؤوس الأشهاد وتعملوا وتعلموا بموجبه وتتحاشوا مخالفته وتعتمدوه غاية الاعتماد 9 م سنة 1247."[2]

قام مؤرخنا الكبير المرحوم عارف العارف بإدراج هذه الوثيقة الهامة التي ترجمها إلينا والتي تنم عن معاني عميقة، بل يجب علينا أن نقرأ ما بين السطور وألا نتركها تمر علينا مرورا عابرا النظر فيها والتأمل في محتوياتها، وإذا نظرنا إليها بعين المبصر فإننا ندرك ما للقدس من أهمية في نظر الولاة والسلاطين الأتراك والاهتمام بأهل القدس، وأنه يبذل غاية الجهد من راحة أهل القدس ودوام رفاهتهم وعبارات التمجيد لوكيل التكية العامرة ببيت المقدس والاهتمام بهذه المدينة وسكانها، وإسبال الألقاب والدعوات للسلطان الخاقان والأعيان إلى غير ذلك من الألقاب والنعوت التي تليق بأصحابها.

إن دل هذا على شيء فإنما يدل على الاهتمام بهذه المدينة لمقامها الرفيع ومنزلتها في نفوس المسلمين وسلاطين آل عثمان.

7- تصيح المرور:

ومن الأوامر التي أصدرها هذا الوالي لمتسلم القدس الشيخ سعيد المصطفى بألا يدخل أو يمر من القدس أي كان إلا بتصريح مرور."[3]

(1) كلمة يستعملها الأتراك بمعنى الأمر العالي.

(2) عارف العارف المصدر نفسه، ص 276 .

(3) المصدر نفسه ص 276.

الفصل الثاني

المبحث الأول

القدس في مذكرات الزائرين والسائحين

أورد العلامة (عارف العارف) في كتابه (المفصل في تاريخ القدس) وصفاً لمدينة القدس خلال هذا العهد للسائح التركي المشهور، أوليا جلبي الذي زارها حوالي سنة 1670 م، وكتب عنها الشيء الكثير في مخطوط أسماه (أوليا جلبي سياحتنا مه سي) وقد عثر في مكتبة المتحف الفلسطيني بالقدس، على نسخة فوتوغرافية لهذا المخطوط، وأخرى باللغة الإنجليزية، ترجمها وضبط حواشيها، أمين المكتبة المذكورة الأستاذ، أسطفان حنا اسطفان، وها أنا مدون فيما يلي، بوجه الإيجاز، ما قاله عنها.

المطلب الأول: القدس على لسان أوليا جلبي

"القدس بلد عظيمة، كائنة على هضبة مرتفعة، هواؤها عليل وماؤها عذب، وسكانها نضار الوجوه، إنها مهوى أفئدة الكثيرين من الناس، لا من حيث قدسيتها فحسب، بل من حيث اقتصادياتها، ووفرة حاصلاتها أيضا".

ثم مدح مأكولاتها ومشروباتها، فوصف خبزها، وعنبها المتنوع الأشكال، والطعم والألوان، وصابونها الممسك، وعطرها، وبخورها، ومباخرها النحاسية. وذكر في نفس الوقت محاجرها الكثيرة، وجبالها المليئة بأشجار الزيتون، وأراضيها المغطاة بالكروم والبساتين. إلى أن قال: إنه كان فيها يومئذ ثلاثة وأربعون ألف كرم، وأنه رأى ألفاً وخمسمائة منطرة قائمة في وسط هذه الكروم، وأن الأراضي الكائنة بين باب الخليل والبقعة خالية من الدور والمنازل، ومليئة بالكروم والبساتين. وأنه ما من أحد من سكان القدس، إلا ويعيش في كرم من هذه الكروم شهرين أو ثلاثة شهور في السنة، ووصف (البقعة) من هذه الناحية، فأسماها لهذا السبب (باغستان). إلى أن قال: "فيها عدد كبير من الأعيان والعلماء والأشراف والفضلاء والرجال، الذين ينتمون إلى الطريقة المولوية ويتقاضى الواحد منهم خمسمائة (اقجه)، كما أن فيها عدداً كبيراً من التجار، وأرباب الحرف، وهؤلاء يعملون بالقول المأثور: "الكاسب حبيب الله".

يستطرد العلامة (عارف العارف) في كتابه المذكور عن القدس في تلك الحقبة إذ يورد قائلا: "عد جاويش زاده محمد باشا سكان القدس، فوجد أنهم 46000ألف نسمه ينتسبون إلى مختلف الأمم والطوائف، بيد أن أكثرهم عرب مسلمون. بينهم عدد من أهل الوظائف في الحرم، لا يقلون عن الألف،

ويتناولون راتبهم من الذهب الذي يأتي به صاحب (أمين الصرة)من الآستانة في كل سنة، أغنياؤهم يلبسون السمور، والقنباز المصنوع من الجوخ الممتاز، والثياب المنسوجة من الصوف المعروف بالجلالي، وفقراؤهم يلبسون العباءة من النوع المعروف ب (الأجه عبا) والقنباز المصنوع من الجوخ العادي، والثياب المصنوعة من الصوف الأبيض، ونساؤهم متأدبات يلبسن على رؤوسهن طاقيات مصنوعة من الذهب أو الفضة، ويلتففن بالملايات البيض، ويحتذين بالأحذية المقفولة المعروفة بالجزم.

"في القدس ستة حمامات هي: حمام ستتنا مريم، وحمام السلطان، وحمام الشفا، وحمام العين، وحمام حمزة، وحمام البطرك، وهذا الأخير في الغالب للنصارى، وفيها ثمانية عشر سبيلا يشرب منها المار والعطشان، يهطل الثلج على جبالها، وفيها صهاريج كثيرة، وفيها كنيستان للأرمن، وثلاثة كنائس للروم، وكنيسان لليهود، وفيها مائتان وأربعون محرابا (مصلى) وسبع دور للحديث، وعشر دور للقرآن، وأربعون مدرسة للبنين وتكايا لسبعين طريقة منها: الكيلانية، والبدوية والسعدية والرفاعية والمولوية، أكثرهم أهل ذوق، وأهل طرق، ودراويش متصوفون.

"وفي القدس أيضا ألفان وخمسة وأربعون دكاناً، كلها مبنية بالحجارة والعقود المقنطرة، وفيها ستة خانات عظيمة، وأسواق كثيرة منها: (سوق السلطان) وهو أشهرها، والمسئول عن إدارة السوق هو (المحتسب) ويلقب بالأغا، ومن واجباته أن يحفظ سجلات يدون فيها أسماء التجار، وأصحاب الدكاكين، وللسوق خان تحفظ فيه جميع البضائع والأمتعة القيمة.

ومن أسواق القدس: (السوق الطويل) تباع فيه الصحون والفناجين، وآلات الطهي وأدوات المنزل، وسوق (الحلاجين) يعمل فيه الحلاجون والندافون وتجار القطن، وسوق (الغلال) تعرض فيه جميع أنواع الحبوب والغلة، وسوق (الحرير) والسوق القريب من باب السلسلة، و(سوق البزازين) ولهذا السوق باب من حديد، وفي القدس عدد غير قليل من الصياغ وتجار الحلي والمجوهرات. وليس على وجه البسيطة نوع من أنواع الصياغة، إلا وفي القدس مثلها.

جميع هذه الأسواق مسقوفة بالعقود المقنطرة، ومرصوفة بالبلاط النقي، والطريق الكائنة بين سوق الغلال وكنيسة القيامة والمسجد العمري، مرصوفة بالبلاط من الحجم الكبير"[1]

المطلب الثاني: وصف القدس على لسان هنري موندرل

وصفهاHenry Maundrell في كتاب أسماه: (رحلة من حلب إلى القدس).

(A Journey From Aleppo To Jerusalem) وصفا لا يختلف عن الوصف المتقدم ذكره.

(1) عارف العارف، المصدر نفسه ص 268 .

"إن القدس كانت تابعة لطرابلس الشام، وأنه كان في طرابلس والذي يسمونه: (أوستان باشا) وأنه ورفاقه السياح الآخرون، انتظروا عند باب المدينة الغربي، المعروف بباب بيت لحم، مقدار نصف ساعة من الزمن، إلى أن جاءهم الإذن من الباشا بدخول المدينة. إذ كان محرماً على الفرنجة ليس دخول المدينة فحسب، بل والدنو من أسوارها قبل صدور الإذن من الحاكم، وكان على الزائرين أن يترجلوا عند ولوجهم أبواب المدينة، وأن يسلموا أسلحتهم إلى جند المرابطين على الأبواب. إلا إذا أجاز لهم الحاكم أن يدخلوها على غير هذا المنوال، وأنهم عند وصولهم إلى كنيسة القيامة، رأوا على أبوابها عدداً من الجند المعروفين بالإنكشاريين، ومعهم عدد من الضباط أقيموا هناك ليراقبوا الزائرين ويجبوا منهم الضريبة المعروفة بضريبة (لغفر)، كانت هذه يومئذ عبارة عن أربعة عشر دولاراً عن كل واحد من اللاتين، ونصف هذا المبلغ عن كل واحد من الرؤساء الروحيين، وأنهم بعد الانتهاء من زيارة الأماكن المقدسة في المدينة، غادروها ميممين نهر الأردن في قافلة بلغ عدد أفرادها الألفين من جميع الأجناس والطوائف، وأن حاكم المدينة، عملا بالأصول المتبعة في تلك الأيام، رافقهم في هذه الرحلة، وكان في ركابه عدد غير قليل من الجند، وأن الحكومة تقاضت لقاء هذه المهمة رسما قدره اثني عشر دولارا عن كل واحد من الزائرين، ونصف هذا المبلغ من الرؤساء الروحيين، وأنهم بعد رجوعهم إلى القدس، وقفوا فوق سطح الدار التي كانت على عهد الرومان قصرا للولاة يسرحون الطرف، عن بعد، في جنبات الحرم، إذ كان محرماً على غير المسلمين يومئذ دخوله، ومن كانت تحدثه نفسه بدخوله كان يعرض نفسه لخطر الموت."[1]

واصلت الحياة مسيرتها في القدس الشريف، إبّان حكم العديد من السلاطين العثمانيين، ولم يسمع عنها إلا النزر اليسير من الأخبار.

كانت أحداث وحوادث فيما بعد في عهد السلطان مصطفى الثالث وهو السلطان السادس والعشرون من سلاطين آل عثمان.

(1) المصدر نفسه ص 270.

المبحث الثاني

محمد علي باشا

المطلب الأول: محمد علي باشا، مولده ونشأته:

ولد هذا الرجل في مدينة قوله سنة 1183هـ 1769م. توفي والده وهو صغير فرباه عمه حتى بلغ أشده وزوجه ابنته واشتغل بتجارة الدخان وأثرى ثراء كبيرا من هذه التجارة. [1]

جاء محمد علي إلى مصر على رأس فرقة الروملي لإخراج الفرنسيين منها واستطاع بمكره ودهائه أن يكسب ثقة العلماء في مصر وسعى في القضاء على منافسيه على ولاية مصر بطرق ملتوية وماكرة وخبيثة حتى أصبح والياً على مصر ابتداء من 20 ربيع الأول سنة 1220هـ الموافق 18 يونيو سنة 1805م. [2]

حدثت أيام حكم السلطان محمود الثاني حروب الموره، وقد استعان السلطان العثماني بمحمد علي باشا في هذه الحرب، فأرسل ابنه إبراهيم، وبدأ نجاح القوات المصرية يظهر بشكل واضح بمقارنة فشل القوات التركية في مهمتها.

طمع محمد علي باشا الذي عرّض جنده وابنه للخطر في بلاد الشام بيد السلطان العثماني، ولم يحقق أحلامه فأخذ يدبر المكائد في سبيل الوصول إلى حكم بلاد الشام، وانتحل الأعذار من أجل هذا الهدف الذي كان يطمح إليه.

حاول السلطان العثماني الاستنجاد به مرة ثانية في قصم ظهر الفتنة التي كان مصطفى باشا الأشقوده يرلي قد رفع رايتها في بلاد الروملي، بيد أنه أبلغه أخيرا بالاستغناء عن هذا الطلب، فأخذ يعد العدة لهذه الغاية. واقترح أن يستخدم قوته المتجمعة في حرب عبد الله باشا والي عكا الذي ابتز أموال التجار المصريين، كما انتحل سببا آخر ألا وهو إيواء عبد الله باشا للفلاحين المصريين الذين فروا من القرعة العسكرية وذهبوا إلى عكا. [3]

استطاع أن يقتحم عكا عام 1832م وبهذا فقد بسط نفوذه على فلسطين وبلاد الشام عامة وأصبحت القدس ضمن هذا النظام الجديد.

---

(1) المحامي، محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، بيروت: دار النفائس، ط2 المحقق د/ إحسان حقي1403هـ ج1 ص 398 .

(2) الروقي، د/ عايض، حروب محمد علي في الشام ص 32 .

(3) د / عمر عبد العزيز عمر، مصدر سابق، ص 316.

المطلب الثاني: الصراع الأنجلو فرنسي مع محمد علي باشا

وصل نفوذ محمد علي باشا إلى أواسط الأناضول، فاستولى على سوريا الكبرى، وبهذا فان الدولتين صاحبتي النفوذ الأكبر في ذلك العهد وهما بريطانيا وفرنسا لم يقفا موقفا متفرجا من هذه الأحداث سيما وأنهما كانتا ترقبان الوضع عن كثب للوضع الذي آلت إليه الدولة العثمانية وينتظران بفارغ الصبر النهاية المأساوية لهذا الدولة التي كان يطلق عليها بالرجل المريض آنذاك.

وقفت بريطانيا بجانب الحكومة التركية ضد محمد علي باشا خشيه التوسع، أما فرنسا فقد كانت مصلحتها تقتضي بالوقوف بجانبه، لكن في النهاية رجحت كفة بريطانيا على فرنسا واستمالت الدول الكبرى آنذاك مثل روسيا والنمسا وانضمت إليها فرنسا وتم الضغط على محمد علي باشا لإخلاء سوريا وفينيقيا وفلسطين وإرجاعها إلى الحكومة التركية، فتجاهل محمد علي باشا في البداية هذا القرار بيد أنه أدرك أن الأمور ليست في صالحه فانصاع إلى الأمر الواقع، وتم الصلح بين الحكومة التركية ومحمد علي باشا بتاريخ 2نيسان سنة 1831م فدخلت فلسطين تحت الحكم المصري، إلا أنه قامت ثورة في فلسطين ضد هذا الحكم، لسببين رئيسيين وهما:

أولا: استنزاف ثروات أهل البلاد لكثرة ما تم جبايته منهم من ضرائب الأفراد والمواشي والحاصلات والتجارة وغير ذلك.

ثانيا: نظراً لحاجة هذا الجيش إلى الرجال فقد فرض التجنيد الإجباري والتقط الشباب من القرى والمدن التي كان يحتلها وألحقهم بوحدات جيشه، مما تسبب في ازدياد الكراهية له.

أما بالنسبة إلى سكان القدس فقد أصدر أمره إليهم بتاريخ 25 / 4 / 1834 م طالبا منهم رجلا من خمسة رجال وقيل رجلا من عشرة رجال لإلحاقهم بالجيش. فطلب مائتي رجل من أهل مدينة القدس وثلاثة آلاف رجل من أقضية القدس ونابلس والخليل.

كان من الإجراءات التي فرضها على أهل البلاد والتي زادت في كراهية بل وفي نفورالناس منه والحقد عليه وبتأليب من مشايخ البلاد أنه سلب نفوذ هؤلاء المتنفذين.

كان لهذه الإجراءات الفظة ضد البلاد وأهلها السبب المباشر في تعبئة روح الحقد عليه لا سيما بين صفوف المسلمين الذين ازدراهم وأثقل كاهلهم وعامل النصارى والدروز معاملة حسنة مما تسبب في قيام التنافر بين المسلمين وغيرهم، فأذكى روح العداوة بينهم وتأججت الثورة على هذا النظام.

نتيجة لهذا الصراع الداخلي بين الطوائف في هذه الديار راح النصارى والدروز وغيرهم يتذمرون من معاملة المسلمين إليهم، فأرسل الباشا للمسلمين ببيت المقدس كتاب تهديد التالي:

" تعلمون أن بيت المقدس كثيرا من الأديار والكنائس والآثار الدينية التي تحج إليها في كل عام الطوائف النصارنية واليهود، وقد شكا إلينا هؤلاء ما يلاقونه منكم من العنت والقسوة والغلظة عليهم، والتحقير لدينهم، فضلا عما أنتم فارضوه عليهم من التكاليف والمغارم الفادحة، غير ناظرين إلا إلى إرضاء أنفسكم والعمل بهواكم على أن هذه الغايات الدنيئة والأفعال المزرية، لا ترضاها النفوس الأبية، ولا يصح السكوت عليها، ولذلك أنهاكم وأحذركم من عاقبة التعرض لأولئك القوم. وأسألكم أن تفسحوا لجماعة القسيسين والرهبان والشمامسة وأهل البيت المقدس من جميع المذاهب، قبطا كانوا أن أرمنا، في دينهم ودنياهم من إقامة شعائر دينهم، ولا تأخذوا ممن يذهبون زائرين لبحر الشريعة شيئا من الكلف والمغارم، ولا تضيقوا على زائري كنيسة القيامة، ولا تلزموا الصغار بدفع المال، فإن أطعتم أحسنتم لأنفسكم، وإن خالفتم أسأتم لها. والسلام عليكم ورحمة الله "[1]

كان نتيجة للأعمال الشديدة التي انتهجها إبراهيم باشا بن محمد علي باشا في هذه الديار ضد السكان، أن ثارت ثائرة أهل هذه البلاد التي تعود أهلها ومنذ قديم الزمان على الثورة والانتفاضة ضد المحتل لأنه لا يعمر فيها ظالم، وقد أخبرنا بذلك رسول الله (ﷺ) عندما هاجم الجراد المدينة، فدعا عليه بأن يذهب إلى بيت المقدس، فسئل الرسول الكريم عليه السلام، لماذا يا رسول الله تدعو بالجراد أن يذهب إلى بيت المقدس فقال " إنه لا يعمر فيها ظالم " صدق رسول الله (ﷺ) وهذه القدس وأهل فلسطين فمنذ العصور الغابرة فإنها لا ترضى بالضيم ولا تستكين إلى دخيل ولا تصبر على مذلة، ومن طبيعة أهلها الثورة والانتفاضة على كل من تسول له نفسه بالاعتداء على حرمة أهل هذه البلاد.

كان نصيب بيت المقدس من هذه الأحداث الجسام أن عقد الأمن قد انفرط وسادت الفوضى وعمت المشاكل بيت المقدس مدة ستة أيام اختفى فيها النصارى في أديرتهم واليهود في كنسهم وقتل خلق كثير في هذه المصادمات التي أفزعت الجميع نتيجة لهذه الساسة الخرقاء.

إليك ما جرى في هذه الفترة في القدس الشريف على لسان المؤرخ الكبير (عارف العارف) في كتابه "المفصل في تاريخ القدس."

"اغتنم المقادسة سفر إبراهيم باشا إلى يافا، ليتفقد أحوالها، فعقدوا اجتماعا حضره عدد كبير من مشايخ القرى المجاورة. وقرروا إعلان الثورة (28 نيسان 1834م) وفي(8 مايس 1834 م) حاصروا القدس، وكان فيها ألف جندي، تركهم إبراهيم باشا خصيصا لحماية القلعة. وفي اليوم التالي9مايس 1834م أتتهم نجدة من نابلس والخليل، عشرة آلاف ثائر، كلهم مسلحون، وأول عمل قاموا به أنهم أنذروا رؤساء الجند المرابطين في القلعة، كي يغادروا المدينة، فكان جواب هؤلاء الرفض قائلين: إنهم

(1) عارف العارف، مصدر سابق ، ص 280 .

قرروا الثبات حتى الموت. فبدأ القتال. ودام تبادل إطلاق النار بين الفريقين بضعة أيام. إن بعض أفندية المدينة، تظاهروا في بادي الأمر أنهم ضد الثوار، ووعدهم قائد الحامية بألا يجند أحدا من المقادسة إذا ظلوا هم مخلصين لإبراهيم باشا. بيد أن هذه المجاملة لم تدم طويلا. فظهر أن جميع السكان من أفندية، وفلاحين، متحدون في الرأي، معتزمون المقاومة، فاشتد القتال، ودام الحصار، ولكن دون جدوى، ظل الجند مرابطين في أماكنهم. وكاد الثوار ييأسون، لولا أن تذكر بعض السلاونه أنه كان في الناحية القبلية لسور المدينة، عند الباب المعروف بباب المغاربة، مجرى قديما لتصريف الأقذار أغلق على مر السنين، فراحوا يبحثون عنه، إلى أن عثروا عليه، فدخله ستة وثلاثون شابا من شباب المقادسة الجريئين. وظلوا يسيرون إلى أن خرجوا منه عند طاحونة في حارة اليهود بداخل المدينة، ثم رجعوا إلى باب المغاربة، ففتحوه على مصراعيه، ودخل منه الثوار، والتحق بهم السكان بأسلحتهم الكاملة.

عندئذ غادرالجند القلعة، وراحوا يبحثون عن الثوار، في شوارع المدينة. وقد كانوا مدججين بالسيوف والبنادق والخناجر والحراب. ولما التقوا بالثوار، جرى صدام عنيف بين الفريقين. وسالت الدماء، وانجلت المعركة عن انتصار الجند. فهرب الثوار من باب العمود، تاركين وراءهم ستة وستين قتيلا، خمسون من الفلاحين وستة عشر من المقادسة، ولم يفقد الجند في تلك المعركة سوى خمسة قتلى. وراحوا بعد ذلك يهدمون الدكاكين، وينهبون كل ما وقعت عليه أيديهم من أمتعة وأموال.

في اليوم التالي 10 مايس 1834 م رجع الثوار إلى أعمال العنف والمقاومة، فكان أول عمل قام به البكباشي أنه قبض على أعيان بيت المقدس، منهم نقيب الأشراف عمر أفندي والباش كاتب وسجنهم في القلعة. ولكن ما كاد الخبر يصل إلى نابلس حتى أتت نجدة منها مؤلفة من ألفي رجل مسلح. ولما رأى البكباشي كثرة عدد الثوار، انزوى هو وجنده في القلعة، بعد أن أمر بإغلاق أبواب السور، لكن المقادسة الذين كانوا في داخل المدينة، فتحوا الأبواب للثوار. فدخل هؤلاء المدينة وساروا نحو القلعة بقيادة زعيمهم إبراهيم أبو غوش. فوقع صدام عنيف بين الجند والأهليين. ودام القتال ثلاثة أيام. نهبت خلالها منازل الأتراك ودور اليهود ومخازن الحكومة، وسادت الفوضى في المدينة. وازداد عدد الثوار فأصبحوا عشرين ألفا. وراح هؤلاء يمطرون الجند المرابطين في القلعة بالنار. واقتربوا من القلعة بواسطة سراديب حفروها في داخل المنازل، وكادوا يستولون على القلعة. لولا نيران المدفعية. تلك النيران الحامية التي كانت تمطرها عليهم حامية القلعة. أضف إلى ذلك أن قلة المؤن في داخل المدينة، وسادت الفوضى وساد معها الخوف والجزع، وانتشرت الأمراض، وكثر عدد الضحايا: ضحايا الحرب والمرض والجوع.

في هذه الأثناء كانت أخبار ثورة القدس قد وصلت إلى إبراهيم باشا في يافا. فطلب في الحال النجدة من بيروت وعكا وطرابلس الشام، فأتته نجدة مؤلفة من تسعة آلاف مقاتل. وفي 24 مايس 1834 م سار بهم فورا إلى القدس، يبغي الانتقام.

إتصل الخبر بالثوار فراحوا يرسمون الخطط لمقاومة هذه الحملة الجديدة، فتحصن أهل القدس في المدينة، وكمن الفلاحون في الكهوف والجبال المطلة على الأودية التي سيمر منها إبراهيم باشا. ووضعوا في الطريق الحواجز، ليحولوا دون مرور الخيل والفرسان. ولما مر هذا من هناك هو وجنده، قابلوهم بالنيران، والقوا عليهم الحجارة والصخور. فبهت الباشا. ولم يكن يتوقع من أهل البلاد هذا الضرب من ضروب القتال.لا، ولا هذه الجرأة. ولم يضع ثانية من وقته. بل راح يدفع هجمات الثائرين، بنيران مدافعة الثلاثة الضخمة، وقد اعترف بعدئذ، لأحد أصدقائه أنه لم يقع في مأزق حرج كهذا المأزق قبل اليوم. إذ مات من جند ألف وخمسمائة قتيل. ومن لم يمت منهم بحد السيف، ذاق الأمرين من قلة النوم والعطش والتعب. واضطر لقضاء يومين في قطع مسافة ما كان ليقضي في قطعها في الظروف العادية أكثر من خمس ساعات.

تمكن إبراهيم باشا، رغم جميع الحوائل التي وضعت أمامه، من الوصول إلى القدس. غير أنه لم يدخل المدينة. ولم يسمح لجنوده بدخولها. ولم ينصب مخيمه في المكان الذي اعتاد الباشاوات النزول فيه، أي تحت الشجرة الكبيرة في داخل المدينة. بل ذهب رأسا إلى جبل صهيون، ونصب مخيمه أمام أسوار المدينة عند الباب المعروف بباب النبي داود. وكان يرمي من وراء هذا التريث، على ما يظهر، إلى أمرين:

الأول: الاستراحة من عناء السفر.

والثاني: جس نبض الأهليين واختبار مدى ميلهم إلى الثورة.

أما المسلمون الذين كانوا يعاضدون الثورة، فقد أخذوا عائلاتهم، وفروا من باب الأسباط. فريق سلك الطريق الشرقية التي تؤدي إلى العيزرية، وآخرون سلكوا الطريق الشمالية وذهبوا إلى رام الله، وأما اللاتين والأرمن واليهود وفريق من الأرثوذكس فقد خفوا لاستقباله، ولم يقابله أحد من المسلمين، في اليوم التالي (13 إبريل 1834 م) عبر من باب النبي داود، ففرحت حامية المدينة بدخوله، وأطلقت من مدافعها 33 طلقة لتحيته، وراح من فوره إلى المسجد الأقصى، ليصلي فيه صلاة الجمعة.

بعد صلاة الجمعة أعلن العفو العام، وطلب إلى الثوار أن يعودوا إلى منازلهم، ونادى المنادى أنه يترتب على الناس مسلمين كانوا أم نصارى أو يهودا، أن يفتحوا دكاكينهم وأن يعودوا إلى أشغالهم كالمعتاد، وقبل عودته إلى جبل صهيون، زار كنيسة القيامة، وشاهد قبر السيد المسيح. وبعد الظهر جاء المسيحيون للسلام عليه: اللاتين أولا، ثم الروم فالأرمن، ولكن الثوار لم يلبوا النداء، ولم يتقدم أحد من المسلمين للاجتماع بالباشا، لا: بل راحوا يوزعون النشرات التي تدعو إلى الثورة، وانتقدوا بصراحة

أعمال الباشا، وتنادوا للاجتماع في مخماس، تلك القرية الكائنة بين رام الله والقدس، ليبحثوا الطرق الواجب إتباعها لمواصلة القتال.

علم الباشا بأمرهم فساق إليهم جيشا قوامه ثلاثة آلاف رجل، وكان هو في المقدمة، والتقى الجمعان، الثوار والجيش المصري. وحدثت بينهما معركة، كان النصر فيها حليف الجيش المصري، فانهزم الثوار، تاركين وراءهم ثلاثة آلاف قتيل وخمسمائة أسير، ولما رجع إلى القدس، ساق الأسرى أمامه، فدخلوا مكبلين بالحديد، واستقبل الباشا وجيشه من قبل النصارى واليهود استقبال الظافرين.

لكن الثوار لم ييأسوا، فقد جمعوا شتاتهم في اليوم التالي لمعركة مخماس (الخميس 31 مايس 1834 م) وتنادوا للقتال، ثم راحوا يتحصنون في الجبال، وبين الأشجار، في المنطقة الواقعة بين القدس وبيت لحم وبيت جالا، وهناك اخذوا يستعدون للمقاومة، فساق عليهم إبراهيم باشا جيشه، ففر الثوار من أمام الجيش، متحاشين الاصطدام به، فاقتفى الجند أثرهم، وفي بيت جالا اقترفوا بعض الفظائع، فقتلوا 33 رجلاً من سكانها ونهبوا منازلها، ولما دخل الباشا، أصدر أمره بمنع السلب، ووقف القتال.

في يوم الاثنين الموافق 4 يونيو 1834 م تجمع الثوار مرة أخرى بالقرب من دير مار إلياس، على طريق بيت لحم، فساق عليهم إبراهيم باشا أربعة آلاف جندي، زودهم بمدفع،وهناك التقى بهم، وظل يطاردهم حتى أرجعهم إلى بيت لحم، وهناك في التلال والوديان جنوبي بيت لحم، تحصن الثوار في المغر والجبال، مستعملين الأشجار والصخور متاريس للمقاومة، وقد قاوموا الجند مقاومة عنيفة، وأما في أرطاس فقد إستراح الجند، وشربوا، ثم سقوا خيولهم، وفيما كانت كوكبة من الجند، مؤلفة من ألف وخمسمائة مقاتل، تسقي خيلها من العيون التحتا، داهمها الثوار، فقتلوا ثمانية من رجالها، وانهزم الآخرون، فرجع إبراهيم باشا إلى القدس مدحورا، وكان بين المقتولين في هذه المعركة الضابط رشيد بك الذي دافع في المعارك السابقة عن القلعة دفاع الأبطال.

أمر الباشا بقطع أشجار الزيتون الكائنة حول المدينة (4- 8 حزيران 1834م) بحجة أنه في حاجة إلى حطب الوقود من أجل جيشه، والحقيقة أنه كان يرمي إلى التخلص منها، لأن الثوار اتخذوها متاريس لمقاومة جنده ومهاجمتهم، ولولاها لما تمكنوا من التغلب عليهم، فازداد سخط الشعب، وبدأ الجند أنفسهم يتبرمون، لأن مؤنهم كانت قد قلت بدرجة تدعو إلى القلق، أضف إلى ذلك أن الباشا علم من التقارير التي تلقاها أن نار الثورة ازدادت اشتعالا في نابلس وصفد وعكا وطبريا ، وفي يافا واللد، وفي الخليل والكرك، وأن القوة التي كانت تحت تصرفه يومئذ (11 حزيران 1834 م) وهي لا تزيد على ستة آلاف جندي، لا تكفي لإطفاء تلك النار، ولهذا طلب النجدة من أبيه، وقرر التحصن في القلعة إلى إن تأتية النجدة.

أدرك الثوار المقدسيون أن الباشا ما كان لينكمش في حصنه، لولا تضاؤل قوته، فراحوا يضيقون الخناق عليه، وقد ضيقوه بدرجة أنه اضطر أن يحتمي بمكان قريب من ضريح النبي داود، وهناك اختبأ في منزل الشيخ درويش الدجاني، شيخ السجادة الخلوتية وزوجته السيدة نفيسة بنت الحاج أحمد طهبوب.

أرسل محمد علي باشا، عندما أتته أخبار ابنه إبراهيم باشا، نجدة مؤلفة من ثلاث كتائب من المشاة، وكتيبتين من الفرسان، وألفاً من البدو، وعهد بقيادة هذه النجدة إلى اثنين من أنبغ قواده هما: احمد منكلي بك ومحمد سالم باشا، وقد أبحر هو أيضا من مرفأ الإسكندرية، قاصدا فلسطين.

عندما وصل جيش محمد علي يافا ورسا أسطوله في ثغرها في (18 حزيران 1834م) انتعش ابنه إبراهيم، وسافر من فوره إلى يافا لاستقباله، مصطحباً معه الفاً وخمسمائة مقاتل. واصطحب معه عدداً من وجهاء القدس. ولما التقيا تعانقا، وتحدثا عما جرى، ثم التفت إلى الوجهاء وسأل ابنه عنهم،قائلا: من هؤلاء بابني؟! قال: هؤلاء هم وجوه القدس وزعماؤها، ثم راح يقدمهم إليه، الواحد بعد الآخر: هذا عمر أفندي نقيب سابق ... وهذا هو المفتي طاهر أفندي.. وهذا هو محمد ابو السعود.. وهؤلاء هم الشيخ محمد علي أفندي الحسيني، والشيخ عبد الله أفندي البد يري، وإبراهيم أفندي طهبوب فحملق محمد علي في وجوههم، ونظر إليهم نظرة ازدراء، كأنه لم يأبه لوجوههم، وراح يجيل الطرف في كل واحد منهم من رأسه إلى أخمص قدمه، ثم هز رأسه وسكت. وبعد التفكير في أمرهم، أمر بإرسالهم إلى عكا، ومن هناك اقتيدوا إلى مصر، وقد أمروا بالإقامة الجبرية فيها.

بعد أن تشاور الاثنان، الأب والابن، في الطرق الواجب إتباعها لإخضاع الثوار، رجع الأب إلى مصر، وأرسل الابن بعض قواده، لتعقب الثوار في جبل الخليل ونابلس ويافا وعكا وفي كل مكان، وأما هو فقد دخل القدس في (21 حزيران 1834 م) وكان معه يومئذ ثلاثون ألف جنديا، ينتمون إلى مختلف الأسلحة والأجناس: مصريون، وهنودا، وعرب وأتراك. كما كان معه عشرة مدافع، وخمسة قاذفات قنابل، فكان دخوله القدس يوما مشهودا، إذ أطلقت مدافع القلعة اثنتين وعشرين طلقة، احتفاء بمقدمه، حتى الثوار من أبناء بيت المقدس، فقد تظاهروا بالفرح، وأبدوا ارتياحهم لمجيئه، أما هو فقد نصب مخيمه على جبل صهيون بالقرب من مقام النبي داود، وأما جنده فقد عسكروا حول السور وفي التلال الكائنة بالقرب من سلوان، ذلك ليكونوا قريبين من الماء، وقد عسكر فريق منهم عند برك سليمان على طريق بيت لحم، من أجل الغاية نفسها.

خبت نار الثورة في القدس، وأرسل إليه ثوار جبل الخليل وفداً يعرض عليه الطاعة، فاشترط عليهم تسليم رؤسائهم أحياء، ولما لم يلبوا طلبه، قاد عليهم جيشا في (24حزيران 1834م) احتل به مدينة الخليل، وجرت بينه وبين الثوار في شوارع المدينة وأسواقها معركة دامت ثلاث ساعات. قاسى السكان

خلالها الأمرين، فسالت الدماء، وهدمت المنازل، ونهبت المتاجر، واعتدى على أعراض النساء، وأسر630 شابا من شبان الخليل، وأرسلوا كلهم إلى مصر، ليخدموا في الجيش المصري.

ولما رجع إلى القدس في (29 حزيران 1834م)أصدر أمره إلى سكانها، من غير تفريق بين جنس وجنس أو مذهب ومذهب، كي يسلموا كل ما لديهم من الأسلحة، وكذلك فعل بالقرى المجاورة، والذي لا يكترث لهذا الأمر ولا يسلم سلاحه يعاقب بالإعدام، فأظهروا استعدادهم لإطاعة الأمر، ولكنهم في الواقع لم يسلموه من السلاح إلا ما كان عديم النفع، وأما الأسلحة التي كانوا نهبوها من مخازن الحكومة، فقد أخفوا قسماً منها ورموا القسم الآخر في ساحة الحرم.

قضى إبراهيم باشا المدة التي انقضت بعد ذلك التاريخ في الكرك جاداً في إطفاء الثورة التي كانت مشتعلة هناك، وفي 10سبتمبر 1834م رجع إلى القدس، واخذ يشدد النكير على الأهلين الذين لم يسلموا ما لديهم من السلاح، منذراً كل من يتخلف عن الانصياع لأمره بالموت، وقد استخدم مئات العمال المسيحيين لهدم منازل المسلمين الثائرين، ولا سيما أولئك الذين رفضوا تسليم أسلحتهم، والذين هربوا إلى الأنحاء الجنوبية من فلسطين، وقد هدم بالفعل عدداً غير قليل من المنازل، وقلع عدداً لا يحصى من الأشجار في كروم العنب والتين والزيتون.

قصارى القول لم يترك إبراهيم باشا وسيلة من وسائل التعذيب إلا واستعملها، ليكره أهل القدس وما جاورها من قرى على الخضوع، حتى أنه في اليوم الثامن عشر من شهر ديسمبر 1834م أتى باثنين من زعماء الثوار: الشيخ حسن وابن أبي زيد، فقطع رأس الأول في باب العمود والثاني في سوق الحبوب، وأرسل بعض الزعماء ومنهم الباش كاتب محمد أفندي، أرسلهم إلى عكا مكبلين بالحديد، ولكن هذه التدابير ما كانت لتقلع روح التمرد والعصيان والكره من أفئدة الأهليين.[1]

المطلب الثالث: عرض وتحليل لواقع الأحداث

علّضني قد أسهبت في سرد الأحداث الجسام، التي وقعت في القدس خلال هذه الفترة وما تلاها من صراع عنيف بين أهل هذه البلاد ونواتهم بيت المقدس وبين الجند المصريين، الذين عملوا ما عملوا في أهل هذه الديار، بيد أني لو وقفت وقفة بسيطة في هذا المجال، فإنه يمكنني أن أصيغ هذه الأحداث بأسلوبي الخاص وأصل إلى النتيجة، بل آليت أن أسردها بقلم صاحب هذه المعلومة بما هي وكما جاءت في مؤلفه الشهير.

وإن جاز لنا في هذه المعلومة، فعلينا أن ندرك أن أهل القدس في جميع عصورهم _ هم هم _ الذين حملوا ويحملون راية المقاومة وصد العدوان عن ديارهم، وهم الذين تنطلق منهم شرارة المعارضة

(1) عارف العارف، مصدر سابق، ص 285 (بتصرف).

على المعتدي عليهم، وأنهم لا يقبلون الضيم أو المذلة من أي كان، بل وأنه قد باتوا بين مهددين، ففي تلك الفترة كانت الحكومة التركية تشرف على حكم هذه الديار بيد أنه لم يكن بيدها لا حول ولا قوة لتدفع عن أهل فلسطين بعامة وبيت المقدس بخاصة غوائل هذه المذابح التي جرت في هذه البلاد، ولو كان بإمكانه لوفرت الجهد الكبير وأنقذت دماءً كثيرةً سالت.!

لكن هذا قدر أهل هذه البلاد، في مقارعة من يعتدي أو يحاول أن يستذلهم،فكان نصيبهم المقاومة ومقارعة المعتدي.

لم تأت هذه الثورة بل،الانتفاضة العارمة المسلحة،على الجند المصريين من الفراغ، بل كانت نتيجة حتمية لمعاناة السكان من الجور والظلم الذي حاق بهم، وكما بينا سابقا بأن الظلم مرتعه وخيم، وعاقبته أليمه وردة الفعل أشد شراسة وقوة على الظالمين، فما جرى في بيت المقدس وديار فلسطين – دعني أقول –على يدي إبراهيم باشا تجاوز كل الحدود آنذاك، فقد استعمل لتنفيذ مآربه وترسيخ طموحاته كل الأساليب القاسية.

كان من هذه الأساليب الفظة التي فرضها على الناس ما يلي:

أولا: استنزاف ثروات البلاد وفرض الضرائب الباهظة على الأهليين بشكل شل حركة الناس الاقتصادية تماما.

ثانيا: فرض نظام التجنيد الإجباري على أهل هذه البلاد وأخذ أبناء فلسطين وزجهم في هذا الجيش، دون قناعة منهم، بالأسباب التي فرضت عليهم، وذلك كان تحقيقاً لشهوته الشخصية لا من أجل التحرير كما يدعي، أو من أجل الجهاد في سبيل الله ورفع راية الإسلام، أو غير ذلك من الأمور التي تشعر الجندي بقداسة عمله، بل كان كرهاً وإجباراً.

ثالثا: تجريد المواطنين من أسلحتهم وأمتعتهم الخاصة، وأدوات القتال التي كانت بحوزتهم حتى يبقى الناس في رعب دائم، وليس لديهم أي وسيلة للمقامة أو الدفاع عن النفس.

رابعا: إن المجتمع الفلسطيني مجتمع قيادي، ويرغب أن يكون تحت إمرة القادة، المحليين سواء على مستوى القروي أو البادية أو المدينة، وله زعامات محليه وعائلية موجودة فيه، وهم قادرون على إدارة شؤونهم وحياتهم المدنية، فعمد محمد علي باشا على كسر شوكة هؤلاء الزعماء المحليين، وإذلالهم وإزالة نفوذهم، مما جعلهم يؤلبون الناس ويوغرون صدورهم ويتفانون في التضحية ضد من يعتدي عليهم.

خامسا: استثمر محمد علي باشا التواجد التركي في هذه البلاد، فأخذ يوغر صدور الأتراك على السكان المحليين، ويحرضهم على إيذاء الناس تحت سلطته وإدارته، وينكلون بالمواطنين الفلسطينيين، ويستبيحون ما يستطيعون الوصول إليه، دون وازع من دين أو وخز من

ضمير، مما تسبب الكراهية له ولمن يسير تحت إمرته، فكانت النتيجة الوخيمة التي ألهبت مشاعر أهل هذه البلاد ضد هذه الحملة.

سادسا: (ألغى الحكم المصري لبلاد الشام (1831م – 1840م) التقسيمات الإدارية العثمانية، وأصبحت بلاد الشام،ومن ضمنها فلسطين، وحدة إدارية واحدة، لكنه أضطر بسبب الاضطرابات والثورات إلى إعادة التشكيلات الإدارية العثمانية، وأوجد إيالة (ولاية) يافا التي تتبعها عكا والقدس، وذلك بسبب عدم الاستقرار في المدن الداخلية، وإلى وجود أسطول مصري قوي في البحر المتوسط.)[1]

لعل متسائل يسأل: إن الجيش المصري جيش عربي مسلم، وبالإمكان الرضى عن هؤلاء القوم. بل واستبدالهم بالأتراك.

ربما كانت معاملة الأتراك أكثر ليونة لأهل البلاد، ولولا القسوة التي عانوها مع هذا الشخص، لما كانت المقاومة شرسة وامتدت هذه السنوات وأكلت الأخضر واليابس.

كل هذه الأحداث تقودنا إلى أمر هام وخطير وجدير بالإهتام، ألا وهو أن الشعب الفلسطيني وأهل بيت المقدس لا يرضون على ضيم ولا يستكينون لظالم مهما كانت توجهاته. فهو شعب جبار على المتجبرين موادع ومسالم ويحترم الآخرين الذين لا ينالون من جانبه أذى، وهذا ديدنهم على مدى التاريخ إلى يومنا هذا، فكم تعرضت هذه البلاد لاحتلال من أمم كثيرة تعاقبت عليها، ولكنه لم يكتب لأي من هؤلاء المحتلين الخلود أو البقاء فيها أو تغيير الطابع الفكري أو الذهني أو العقدي من نفوس أهل هذه الديار،بل أنهم وعلى مدى تاريخهم الطويل كانوا يقفون في وجه المحتل ويقاومونه.

إن ما نعيشه في أيامنا هذه من احتلال لديار فلسطين من قبل اليهود، لأكبر دليل وعلى الرغم من الفارق العريض بين أهل هذه البلاد سواء من ناحية الفكر أو التسليح أو شراسة الهجمة على أهل هذه الديار فإن المقاومة لم تخب يوماً ولم تتوقف في أي لحظة من لحظاتها، بل هي مستمرة مهما حاول المحتل أن يتبع من أساليب البطش والتنكيل في أبناء هذه الأمة سواء بالقتل أو التدمير للمنازل أو اقتلاع للشجر والإنسان والحجر أو اعتقال وزج في غياهب السجون .... بل إن الموقف ثابت وواضح ومصير هذه الإحتلال كمصير غيره ممن سبقوه، فسينكسر ويصبح تاريخاً أسوداً في جبين المحتل وستسجل لنا كتب التاريخ الجرائم التي ارتكبت بحق الأبرياء.!!

(1) النمورة، محمود طلب، الفلسطينيون ومؤسسات الحكم المحلي بين الحكم الذاتي والاحتلال وحق تقرير المصير من العهد العثماني إلى الانتفاضة 1794 م – 1917 م، المكتبة الوطنية، سنة 1994 م ص، 75.

حري بنا أن نعود إلى مجريات الأحداث المأساوية في هذه الحقبة المظلمة على أمتنا ولنفند وقائعها ومجرياتها على النحو التالي:

كانت الثورة عارمة في ربوع أنحاء الوطن من شماله إلى جنوبه ومن شرقه إلى غربه، ومما هو ملفت للانتباه والواجب علينا أن نذكر به في هذه الحقبة، أن الوحدة الوطنية التي كان يتمتع بها الشعب في ضفتي نهر الأردن كانت نسيجا رائعا لم تظهر فيه الفروق العرقية أو القبلية أو النزعة العشائرية، بل أن الضفتين كانتا وحدة واحدة في مشاعرها ومصيرها المشترك وثورتها المتأججة، فحينما كانت تثور القدس أو يافا أو عكا أو جزء من أرض غربي نهر الأردن كانت تتجاوب معها فوراً الكرك أو السلط أو الضفة الشرقية لنهر الأردن، فلم يكن هناك منظور لكل منهما كما نلاحظه اليوم، بل أن هذه البلاد كانت نسيجاً واحداً وقلباً موحداً ومصيراً مشتركاً.

من الملاحظ في هذه الثورة العارمة، أن نواتها العصية التي قست على الكسر دائما كانت تتأجج من القدس فتنطلق شرارتها إلى جميع أنحاء الوطن على امتداد رقعته، فكانت الخليل ونابلس بحكم واقعهما الثوري وبسالة رجالاتهما في طليعة المدافعين عن بيت المقدس، ولا أقلل من شأن بقية البلاد، بل أنهم جميعاً في خندق واحد ومصير مشترك.

كانت المقاومة شرسة جداً وكان السلاح في المقاومين فتاكا، مما ألهب مشاعر الناس فضجت البلاد بجميع إطاقاتها للزحف صوب القدس، فانتشر الثوار في أعالي الجبال والسهول والوديان، وكانت الصدامات الدامية شديدة جدا والخسائر فادحة والعواقب وخيمة.

أبرزت لنا السياسة العنصرية والتفرقة العرقية سوء الوضع الإداري الذي انتهجه إبراهيم باشا ضد السكان، بحيث أنه ازدرى المسلمين سكان البلاد الأصليين، واخذ يتقرب من الدروز والنصارى واليهود علّه يجد فيهم من يساعده في قمع الثورة وكسر شوكة أهل البلاد،واستعملهم كوسائل تدمير وأدوات خراب ومعاول هدم ضد الثوار، أو من تسول له نفسه بمقاومة جنده.

لم تنكسر شوكة الثوار الفلسطينيين من معركة واحدة، ولم يهزموا بلا رجعة،بل كانوا يجددون نشاطهم ويشحنون هممهم المرة تلو الأخرى، ولم يتسرب اليأس إلى نفوسهم، بل كانوا يزدادون المرة تلو الأخرى، ويحاصرون الجند في القلاع والسهول والوديان مما تسبب في إرهاق هؤلاء الجند، وتدمير قدراتهم، وشل حركتهم لأنهم أصبحوا مكروهين وغير مقبولين، ولا بأي ثمن من الأثمان، وأصبحوا هدفا للقناصة والثائرين في كل موقع يتنقلون فيه، فضاقت بهم الحياة ذرعا ولم يستطيعوا السيطرة على البلاد أو العباد.

كانت النجدات تتوالى عليه من مصر، وتتدفق على هذه البلاد التي رأى فيها من الشدائد ما لم يره في أي موقعة على مدى معاركه، مما أذهله وأحرجه أمام ضربات الثوار الفلسطينيين، فاستدعى

والده الذي لاقاه في ميناء يافا حيث أحضر معه عدداً من وجهاء القدس ليشعره بأن الوضع مستتب والأمن مستقر، بيد أن والده لم يأبه بما كان، بل ازدرى هؤلاء الوجهاء ونفاهم إلى مصر.

حاول إبراهيم باشا وبتدبير مع والده، إخماد نار الثورة والقضاء على الثوار، فكان نتيجة ذلك، أن هاجم مدينة الخليل وذبح منها العديد واستاق من شبابها 630 شابا إلى مصر وألحقهم بالجيش المصري.

جميع هذه الأعمال التي ارتكبت بحق الآهلين في هذه الديار كان له أوخم العواقب، فلم يستقر له قرار ولم يهدأ له بال إلا بالعودة من حيث أتى وترك البلاد لأهلها بعد أن تكبد الخسائر الفادحة وتشتت جيشه في أرجاء هذا الوطن والذي مازالت بعض العائلات في فلسطين حتى يومنا هذا ترجع بأصولها إلى هذه الحملات،فعاد بعد أن تجرع أذيال الهزيمة على يد هذا الشعب المكافح.

هذا من جانب: أما إذا نظرنا إلى جوانب أخرى، فإنه يجدر بنا أن نذكرها وألا ننساها، وأن تذكر الأمور على حقيقتها وما قدمته بل وما تركه إبراهيم باشا خلال فترة حكمه المشحون بالصدامات في هذه البل، فمن هذه الأعمال التي مازالت خالدة لنا في القدس الشريف من ذلك العهد ما يلي:

في عام 1839 م أنشأ جانبا من القشلاق الواقع بالقرب من القلعة القديمة بباب الخليل.

1. جدد عمارة بناء السرايا القديمة الواقعة على طريق الجسمانية في القدس الشريف.
2. بتاريخ 16 أغسطس سنة 1839 م أنشأ طاحونة القمح الواقعة إلى الجهة الغربية من مدينة القدس والتي أخذ أهل القدس بطحن حبوبهم فيها، واستفاد منها لإمداد جيشه أيضا.
3. انشأ الزاوية الإبراهيمية الواقعة شمالي ضريح النبي داود عليه السلام. وقد حوصر في هذا المكان في إحدى منازلاته بيد أنه نجا من هذا الحصار فيما بعد.
4. اهتمامه بالقلاع وإعمارها. فقد عمّر قلعة في وادي الجوز شمال القدس. وأخرى في وادي الجوز والطور وعمّر القلعة الكائنة بين الخليل والقدس. كما أنشا قلاعا بين القدس ويافا.

المطلب الرابع: الحالة الاجتماعية والاقتصادية في القدس في عهد إبراهيم باشا

إنصافا للحق، فبالإضافة لما تقدم من إنجازات عمرانية للقدس الشريف في عهد إبراهيم باشا يجدر بنا، أن نذكر محاسن هذا الرجل، وما قدمه في هذه البلاد من خدمات جلّى وهي:

1. حاول اليهود وعلى رأسهم موسى منتفيوري استئجار أرض في القدس مساحتها خمسون فدانا، بالإضافة إلى خمسين قرية من أراضي فلسطين لأبناء طائفته، فعرض الأمر على إبراهيم باشا، ومن ثم تم العرض على والده محمد علي باشا، فكان موقفها بعدم الموافقة على مطالب اليهود.

2. حاول اليهود وبطرق شتى، استغلال الوضع الراهن آنذاك والاندفاع صوب حائط البراق لتبليطه، وأخذ مكان لهم فيه للعبادة، فكانت الإجابة بالرفض، وعدم تمكينهم من هذا الغرض، حيث فهمت نواياهم وبقي الأمر على ما كان عليه سابقاً.
3. أصلح بين الطوائف النصرانية التي كانت تتصارع بينها في كنيسة القيامة، إثر الشجار الذي وقع بين الروم واللاتين.
4. تغيير الزى الذي كان متبعا في عصره، حيث قلده المواطنون في زيه واستبدلوا العمائم بالطربوش المغربي.
5. المساواة الاجتماعية بين جميع طوائف المجتمع، وألغى الضرائب عن اليهود والنصارى وساواهم بالمسلمين من حيث اللباس، واكتفى بضريبة الخراج مقابل تجنيد المسلمين بالجزية.
6. إعطاء الحرية للتجار بالبيع والشراء داخل البلاد.
7. إلغاء الضرائب التي كان يجبيها حراس كنيسة القيامة من عائلتي جوده ونسيبه على الزوار.
8. الإصلاح الزراعي وتشجيع المزارعين على الاستفادة من أرضهم، وتوزيع الحبوب والأشجار المثمرة عليهم والمحاريث.
9. تشجيع زراعة الزيتون والاستفادة من إنتاجه في صناعة الصابون المحلي.
10. اهتم بالطرق فأنشأ العديد من الطرق الواصلة بين المدن والقرى لتسهيل وتقريب المسافات.
11. إصلاح الوضع الإداري وأحوال الموظفين.
12. ترتيب المحال التجارية في القدس، فأمر بتوسيع الأسواق وإزالة المصاطب الواقعة أمام المحلات التجارية لتوسيع الطرقات على الناس والتجار.
13. وعلى الصعيد الإداري فقد أنشا مجالس شورى في المدن والتجمعات السكانية التي يزيد عدد سكانها عن العشرين ألفا.
14. وعلى الصعيد السياسي، فلم يسمح لوكيل قنصل أمريكا برفع علم بلاده في القدس.
15. سمح لقنصل فرنسا بإنشاء بناء للرئيس، وآخر للمرضى في نفس دير اللاتين في القدس.

فإذا كانت هذه الأعمال من إيجابيات هذا الحاكم، بيد أنها لم تسد الثغرة التي كانت في نفوس أهل هذه البلاد من قسوة لاقوها على يديه، وعدم التعامل مع أهل البلاد واللطف، فعلى الرغم من هذه الإصلاحات إلا أن السلبيات كانت أشد إيلاما، فكما هو معروف بأن الشعب الفلسطيني بعامة وأهل القدس بخاصة لا يرضون على ضيم ولا يستكينون للإغراءات إلا أنهم ثاروا عليه واستمرت الثورة حوالي عشر سنوات حصدت الآلاف من الشباب الفلسطيني وأمثالهم من الجيش المصري الذي كانت نتيجته خروج إبراهيم باشا من هذه البلاد، وتمزق جيشه بين أرجائها فنجا منه من نجا وعاد إلى

بلاده، وبقي منه من بقي، وتعايش مع أهل هذه البلاد واندمج في المجتمع الفلسطيني، وأصبح جزءا منه، ولا يغفل عن بالنا في هذه الحقبة، أن هناك روافدَ كانت تؤازر هذا الشعب ضد إبراهيم باشا،وأن الحكومة التركية التي لم يرق لها هذه الروافد لما ما قام به محمد علي باشا، وأبنه كما كان للدول الغربية الأثر البالغ في هذا الشأن، وعلى رأسهم بريطانيا وفرنسا، حيث كانتا تطمحان في هذه البلاد، وإجهاض كل من محمد علي باشا والحكومة التركية بانتظار وفاة الرجل المريض للانقضاض على أملاكه.

"كانت الدول الأوروبية تشن الحروب على الدولة العثمانية، وتتآمر عليها، ولذلك كانت تغير مواقفها وسياساتها تجاهها حسب مقتضيات مصالحها الخاصة، ففي البداية كانت الدول الأوروبية تشجع الحكام والشيوخ المحليين على تحدي سلطة الدولة العثمانية، ولذلك ساعد الأسطول الروسي " علي باشا" الكبير في مصر، وحليفه " ظاهر العمر " في فلسطين اللذان تمردا على السلطان العثماني في نهاية القرن الثامن عشر، كما ساعدت فرنسا "محمد علي باشا "وشجعته على احتلال فلسطين وسوريا سنة(1831م – 1839م) ولكن بعد الإحتلال المصري لسوريا وفلسطين، وتدخل روسيا عسكريا لمساعدة السلطان رأت بريطانيا ودول أوروبية أخرى،أن ذلك التدخل ليس في مصلحتها، ولذلك تعاونت مع الدولة العثمانية، وذلك من أجل إجلاء القوات المصرية من الأراضي التي احتلتها، واشترطت مقابل ذلك المساعدة، أن تدخل الدولة العثمانية النظم الإدارية الأوروبية، وأن تمنحها مزيداً من الامتيازات التي تسمح لها بالتدخل في شؤون الدولة العثمانية."[1]

(1) المصدر السابق ص 82.

obeikandl.com

الفصل الثالث

المبحث الأول

القدس من عهد السلطان عبد المجيد إلى نهاية عهد السلطان عبد الحميد

المطلب الأول: القدس في عهد السلطان العثماني عبد المجيد 1839 م – 1861 م

جرت في عهد السلطان محمود الثاني أحداث بارزة في تاريخ العثمانيين، كان من أبرز هذه الأحداث أمران هامان وهما:

أولا: غزو نابليون بونابرت بلاد مصر والشام وتوقفه على أسوار عكا.

ثانيا: احتلال جيش إبراهيم باشا بن محمد على باشا بلاد الشام، وتوغله في أرض العثمانيين في آسيا الصغرى وارتداه عنها.

تبع عهد محمود الثاني عهد ولده عبد المجيد الذي جرى في عهده فترة الإصلاحات العثمانية المعروفة بفترة التنظيمات الإدارية، التي تمثلت في سلسلة طويلة من القوانين والنظم التي طبقت في عصره على رعايا الدولة العثمانية.

هذه الفترة وما تلاها من فترات في أواخر العهد العثماني، أصبحت لدينا قريبة يمكن استقراء الأحداث عنها بدقة أكثر، مما سبقها بحكم التواصل الزمني القريب، وظهور الحداثة في نقل المعلومات، كما أن هذه الفترة امتازت بفترة الصراع على أملاك الدولة العثمانية من دول الغرب كبريطانيا وفرنسا وروسيا من الشرق، كما قامت هاتان الدولتان بالتدخل مباشرة في شؤون العثمانيين طمعاً في أملاك هذه الدولة المترامية الأطراف، ناهيك عن ظهور فترة الإستشراق والحقد الصليبي الذي أخذ يفكر جديا في إعادة بسط نفوذه على الشرق الإسلامي، واستثمار موارده ونشر أفكاره بين أبناء هذه الأمة.

صدر في هذه الفترة سلسلة من القوانين العثمانية، إرضاء للدول الطامعة أولاً وتمشيا مع حالة الفوضى التي كانت تسود البلاد آنذاك وعدم السيطرة التامة على هذه الديار المترامية الأطراف التي أصبحت لقمة سائغة للطامعين، كان من ابرز هذه القوانين:

أولا: خط شريف كلخانه (أو منشورات الكلخانه) الذي صدر في 26 شعبان 1255 هـ وفق 3 نوفمبر سنة 1839 م.

ثانيا: خط همايون (أي السلطاني أو التنظيمات الخيرية) الذي أصدره نفس السلطان عام 185م.

كان خط الكلخانه بمثابة الإصلاح الرئيسي، ففي بداية عهد السلطان عبد المجيد 1839م – 1861م دعا الوزير المصلح مصطفى رشيد باشا 1800م-1858 م لإجراء الإصلاحات الضرورية في جهاز الدولة، حيث أن هذا الرجل كان سفيراً لبلاده في عدة دول أوروبية، وأراد ان ينقل إلى بلاده الفكر الأوروبي تحت مظلة الإصلاح الإداري والمالي، واستطاع ان يقنع السلطان بهذه الإصلاحات التي تتمثل بما يلي:

1- منح السلطان الرعية أمنية الروح والعرض والناموس والمال.
2- وعد السلطان بإصلاح الإدارة والقضاء حيث انتزع هذا الخط من نفوس الولاة الجرأة على القتل والمصادرة.
3- أمر السلطان بإجراء القرعة العسكرية الشرعية شرط ألا يترتب على ذلك الخلل في منافع مواد الزراعة والتجارة.
4- أمر السلطان بجباية الأموال وتوزيعها بمقتضى أحكام الشرع وإلغاء "أصول الالتزامات من آلات الخراب ولم يجن منها ثمر نافع في وقت من الأوقات".
5- القضاء على الرشوة بين الموظفين وذلك لعدم كفاية الرواتب لهم.
6- وعد السلطان بالاستمرار في الإصلاح وتعيين الويركو والتنظيمات العسكرية.
7- طلب السلطان تعميم هذا النظام على جميع الولايات وإبلاغ سفراء الدول الأجنبية بما جاء فيه. [1]

فإن جاز لنافي هذا المقام، فإنه يجدر بنا أن نتخذ من هذا الإصلاح مقدمة إلى ما هو أبعد منه، حتى نواصل الحديث عن هذه الفترة التي كان اهتمام الغرب فيها كبيرا بشؤون الدولة العثمانية، وقد حدثت الحرب بين روسيا القيصرية والدولة العثمانية، وساند البريطانيون والفرنسيون العثمانيين على الروس مما أدى إلى انتصارهم على روسيا انتصاراً باهراً.

إن الذي يهمنا في هذا السياق حالة القدس الشريف، وما آلت إليه الأحداث إثر هذه الحرب وما ترتب عليها، حيث كان عدد سكان القدس في هذه الفترة حوالي عشرين ألف مواطن، منهم ألف مواطن نصراني والباقي من المسلمين. عندما ورد نبأ الانتصار التركي على الروس قامت في القدس الزينات، واستمرت الاحتفالات ليل نهار لمدة ثلاثة أيام، فأطلقت المدفعية إحدى وعشرين طلقة وأضيئت المساجد والمآذن، كما احتفلت السفارتان الفرنسية والبريطانية بهذا الانتصار على الروس، بعد تنفيذ هذا القانون الذي صدر سابقاً وتطبيقه على الولايات العثمانية، والانتصار المؤزر الذي تحقق

(1) د – عمر عبد العزيز عمر، سبق ذكره،ص 275 .

للعثمانيين، وبمساعدة إنجلترا وفرنسا للعثمانيين على الروس في حرب القرم. أصدر السلطان العثماني عبد المجيد همايونيا أي (قانونا) آخر فأقر فيه كافة المبادئ التي وردت في خط كلخانه، يتعلق أكثرها بحقوق الطوائف غير الإسلامية ومصالحها، وقد اهتم الخط بصفة خاصة بالتأكيد على مبدأ المساواة القانونية والمدنية بين جميع رعايا الدولة وحقهم في خدمتها، وانتظم المسيحيون في الجندية مثلهم مثل المسلمين، ونجمل فيما يلي أهم النقاط التي وردت في خط همايون:

1- إقرار امتيازات الطوائف غير المسلمة، بعد إعادة النظر في تنظيماتها من قبل الطوائف على أن تتقدم كل طائفة إلى الباب العالي بمقترحات الإصلاح، التي تتفق مع ما طرأ على الدولة العثمانية من تقدم ورقي.

2- السماح للطوائف غير الإسلامية بالحرية في ممارسة شعائرها الدينية، وبناء معابدها بشروط يتوافر فيها التسامح.

3- إعلان المساواة في المعاملة بين جميع الطوائف، ومنع استعمال الألفاظ التي تحط من قيمة غير المسلم، وتأمين الحرية الدينية لأهل كل مذهب.

4- إفساح المجال أمام كافة رعايا السلطان للمساهمة في خدمة الدولة عن طريق تعيينهم في الوظائف واستفادتهم من خدمات الدولة التعليمية.

5- نص الخط على إنشاء محاكم مختلطة للفصل في القضايا المدنية، والجنائية، أما الدعاوى الخاصة بالأحوال الشخصية والإرث، فتحال إلى المحاكم الشرعية بالنسبة للمسلمين، وإلى المحاكم الطائفية بالنسبة لغير المسلمين، كما وعد السلطان بإصدار قانون جزاء الهمايوني في وقت قريب.

6- المساواة بين جميع رعايا الدولة في الحقوق والواجبات، ولاسيما في مجال الخدمة العسكرية

7- وعد السلطان السماح للأجانب بالتملك في الدولة العثمانية.

8- منع الالتزام الضرائب من قبل موظفي الدولة.

9- تنظيم ميزانية الدولة بتسجيل الوارد والصادر.

10- وعد السلطان إشراك رؤساء الطوائف في مناقشات المجلس العالي المتعلقة بشؤونهم.

11- وعد السلطان بإجراء الإصلاحات الشاملة في مجالات المالية والمواصلات والمعارف والزراعة والتجارة.[1]

(1) سبق ذكره، ص 278 .

بعد هذه الأحداث التي أصبح التقارب بين بريطانيا وفرنسا والدول الغربية من جهة، والدولة العثمانية من جهة ثانية، فقد ازداد توجه الدول الغربية صوب القدس وافتتحت فيها العديد من السفارات الغربية، واستثمر الغرب هذا التقارب من اجل الدخول إلى هذه المنطقة، فرفعت الأعلام البريطانية والفرنسية والنمساوية والروسية والأسبانية والأمريكية وغيرها على السفارات في بيت المقدس.

جرت في القدس أحداث جسام خلال هذه الفترة، فقد انحبست الأمطار، وضاقت أحوال الناس ذرعاً، كما انتشرت الأمراض وعم الغلاء والوباء وقلّت سيطرة الدولة على الناس بسبب الفوضى العارمة، وعدم السيطرة على الأحوال، لكن الوضع تحسن إبان عودة الحياة إلى ما كانت عليه، حيث أنقذت البلاد بهطول الأمطار، وتحسنت الأحوال الاقتصادية،ففي هذا العام الذي أغيث فيه المقدسيون، وانفرجوا مما كانوا فيه من ضيق وضنك وسوء حال، فتح الله عليهم أبواب السماء مدراراً فتوسعوا في البنيان،وخرج قسم منهم في هذا العام 1858 م وبنوا الأبنية الحديثة خارج أسوار القدس.

إذا نظرنا إلى هذه الفترة من الحكم العثماني، فإننا نلاحظ تغلغل الغرب في هذه الديار، وعلى الأخص بيت المقدس، والتركيز عليها بشكل خاص، ليكون لكل دولة غربية موضع قدم وسفارة تمثل بلادها في هذه المدينة الخالدة، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فقد أعطيت فرصة كبيرة لأبناء الديانات الأخرى، بأن ينبشوا أظفارهم في هذه الديار، ويكون لهم موضع قدم في بيت المقدس، تحت الحماية أو الرعاية التي كانت تشرف عليها سفارات تلك الدول الطامعة، ولا يخفى علينا في هذه الحقبة من أطماع اليهود في بلادنا بعامة، وفي بيت المقدس بخاصة، مما أتاح لهم التوجه بتفكيرهم والعمل مع دول الغرب الاستعمارية، الطامعة في وطن لهم في فلسطين وبيت المقدس.

المطلب الثاني: القدس ونصيبها من الخط الهمايوني في هذه الفترة

القدس جزءٌ لا يتجزأُ من البلاد التي كانت تابعة للنظام العثماني، وقد أولاها العثمانيون عناية خاصة، فاقت غيرها من المدن التي كانت تابعة لها لأسباب منها.

1. أن هذه الدولة كانت دولة إسلامية سنية، ومن مبادئها الحفاظ على منابع الإسلام، كمكة والمدينة وبيت المقدس، لما لهذه المدن وما فيهما من قداسة وطهارة، وأماكن إسلامية تهم كل مسلم في مشارق الأرض ومغاربها، وجوهرتها المسجد الأقصى المبارك وقبة الصخرة المشرفة.

2. للقدس خاصية مميزة عن غيرها من المدن الإسلامية، ذلك لأن هذه المدينة مركز الصراع العقدي بين أبناء الديانات الثلاث، ولهذا فقد أولت الحكومة التركية القدس رعاية خاصة فأتبعتها في العديد من عهود حكمها إلى الآستانة مباشرة.
3. أدركت الحكومة العثمانية، ما للدول الغربية والشرقية من أطماع في بيت المقدس، كالصراع على الأماكن المسيحية بين فرنسا وبريطانيا من جهة وروسيا من جهة أخرى، وادعاء هذه الدول بأنها الحامية للطوائف اللاتينية أو الأرثوذكسية.
4. الجذور العميقة التي تربط أهل فلسطين بعامة، وأهل القدس بخاصة في مدينتهم، وأن القدس هي البوصلة التي تحرك العالمين العربي والإسلامي، كما وضح ذلك في المقاومة الشرسة التي قادها أهل فلسطين وبيت المقدس ضد إبراهيم باشا، وما قدمه أهل هذه المدينة من تضحيات في سبيل صده عن مدينتهم الخالدة.

لهذه الأسباب وغيرها، فلقد كانت القدس الخالدة على رأس أوليات المدن التي حظيت بالتنظيمات الإدارية، ودخلت إليها التشريعات السلطانية، وطبقها أهل هذه المدينة في نواحي حياتهم المختلفة، ومن ضمن هذه الإجراءات التي نفذت في القدس الشريف ما يلي:

أولا: التقسيم الإداري – في عام 1864 م أصدرت الحكومة التركية، نظام الولايات الذي كفل للحكومة المركزية الهيمنة على جميع شؤون الإدارة في الولاية.

ولما عاد العثمانيون إلى بلاد الشام 1256هـ - 1840م أصبحت التقسيمات الإدارية في فلسطين، تضم لواء القدس الذي يتبع ولاية صيدا ولوائي نابلس وعكا اللذين يتبعان ولاية دمشق وفي الفترة الواقعة بين عامي 1841م – 1844م ضمت ألوية القدس ونابلس وجنين وغزه إلى ولاية صيدا. ونتيجة لمنازعات الدول الأوروبية حول الأماكن المسيحية المقدسة التي أدت إلى نشوب حرب القرم 1854م – 1856م قررت الدولة العثمانية رفع لواء القدس إلى مرتبة ولاية عام 1856م. وفي الفترة الواقعة بين عامي 1864م – 1872م كانت ولاية دمشق تضم ألوية القدس ونابلس وعكا وبذلك نزلت القدس إلى مرتبة تابعة إلى ولاية دمشق بعد أن كانت تتبع الباب العالي رأسا.[1]

ثانيا: التعليم – في عام 1857 م أنشئت وزارة التربية والتعليم في الإمبراطورية العثمانية باسم (معارف عمومية نظاراتي) وكانت مراحل التعليم ثلاثة وهي:

(1) محمود طلب ألنموره، المصدر نفسه، م ص 76.

المرحلة الابتدائية – المرحلة الرشيدية – المرحلة الإعدادية.[1]

وقد زاد في نفوذ أعيان البلاد بشكل عام، والقدس بشكل خاص، أن حصل أبناء هذه الطبقة على التعليم الحديث نسبيا في المدارس الجديدة في الدولة العثمانية، ولهذا كان أبناء هذه الطبقة هم المرشحون لتبوء المراكز الحساسة، والمتقدمة على الصعيد المحلي، وفي المحافل السلطانية لأنها الطبقة المتعلمة التي أتيحت لها فرصة التعلم.

ثالثا: الأراضي، فقد تم مسح وتسجيل الأراضي في متصرفية القدس، فواكب تطبيق تعليمات الأراضي في متصرفية القدس عدة تطورات، من أبرزها عمليات المسح والتسجيل، فقد أكدت التنظيمات وفي مقدمتها قانون الأراضي 1274هـ – 1858م على وجوب حصول المتصرف بالأراضي الأميرية على سند طابو – قوجان – موشح بالطغرة السلطانية، يكفل حقوق الخزينة القابضة على رقبة الأرض من جهة، والمتصرف بالأرض أو المستأجر بها من جهة أخرى. كما بينت أنظمة الطابو اللاحقة على صدوره ترتيب الحصول على السند، وفي سبيل التعرف على مدى فعاليتها كواقع عملي على أراضي المتصرفية لا بد من التوقف عند النقاط التالية:

1. ألحت سجلات المحاكم الشرعية عام 1266هـ 1849م إلى وجود موظف خاص، يعني بشؤون الأراضي يعرف (بمأمور الأملاك والعقارات) كما أشارت إلى وجود سندات طابو قديمة بيد السكان بمن فيهم الزعامات الإقطاعية المحلية، غير أننا لم نعثر على أي إشارة دالة على وجود دائرة للطابو واضحة المعالم قبل الشروع في عمليات المسح والتسجيل عام 1285هـ 1868م وبحلول عام 1317هـ 1899م وعلى إثر تشكيل قضاء بئر السبع في المتصرفية، كان هناك إلى جانب مديرية الدفتر الخاقاني – الدائرة المركزية في مدينة القدس، أربع دوائر أخرى فتحت أبوابها في سراي الحكومة في كل من غزة ويافا والخليل وبئر السبع.
2. المساحة – نص البند الأول من لائحة تعليمات بحق سندات الطابو الصادر عام 1276هـ 1859م،على أنه لا يمكن لأحد أن يتصرف بأراضي أميرية، بغير سند على أي صورة كانت من الصور، وعليه فإن من لا يوجد بيدهم سندات عليهم أن يأخذوا سندات، والذين بيدهم سندات عتيقة، ما عدا سندات الطابو المتوجة بالطغراء يبدلوا سنداتهم

(1) الحولي، عليان عبد الله، يوم القدس، الندوة الرابعة، نابلس : جامعة النجاح الوطنية، سنة 1998م ص70 .

أيضا ... هذا ما طبق على أرض الواقع الأراضي الدولة العثمانية، وكان من ضمن هذه الإجراءات ما حدث في مدينة القدس.

3. تسجيل الأراضي – تزامنت عمليات التسجيل ومنح سندات الطابو مع انطلاقة عجلة المسح الميداني عام 1285هـ 1868م. ففي عام 1266هـ 1849م –على سبيل المثال – لم يتوان الصدر الأعظم عن تصدير أوامره إلى متصرف – والي – القدس الشريف أدهم باشا لتشديد الرقابة على تسجيل العقارات للحيلولة دون تملك الأراضي للأجانب.[1]
4. ومما هو جدير بالذكر بأنه قد زاد في نفوذ أعيان المدن، بشكل عام والقدس بشكل خاص نجاحهم، في تسجيل بعض أراضي الدولة، وأراضي الأوقاف بأسمائهم.

رابعا: الناحية الاجتماعية – سبقت هذه الفترة من الحكم فترة نفوذ الحكام المحليين ورجال العشائر فسيطرت على أحوال الناس، وكانت هيمنة الحكومة المركزية عليهم ضعيفة، مما تسبب في حدوث العديد من النزاعات والصراعات والحروب الداخلية المحلية، الذي أضعف من هيبة الحكومة المركزية، فكان الصراع في فلسطين بين القيسية واليمنية من جانب، وبين أبناء الجبل والسهل من جانب آخر وبين القرى والمدن أو بين البادية وأهل القرى ...

لما صدر هذا القانون، تمكنت الدولة العثمانية من القضاء عل نفوذ الحكام الشيوخ المحليين في جبال نابلس والقدس والخليل بحلول عام 1860م ووضعت حداً لتمردهم وتحديهم للسلطة المركزية، ففي جبال القدس كانت الخلافات بين القيسيين واليمنيين أشد مما كانت عليه في جبل نابلس، وشملت تلك الخلافات معظم أنحاء جبال القدس، وكان من زعماء القيسيين في جبال القدس آل سمحان (بنو حارث) والبراغثة (بنو زيد) وآل اللحام في العرقوب. كما كان من زعماء اليمنيين آل أبي غوش (بنو مالك) الذين شمل نفوذهم بيت لحم وجزءاً من بني حسن ورام الله والبيرة.

المطلب الثالث: النشاط العمراني في القدس في هذه الفترة

"حتى أواسط القرن التاسع عشر كانت القدس ما تزال ضمن حدود الأسوار، وكانت البيوت نصف مهدمة خالية من السكان، وقطع أراضي مفتلحة وأكوام من القمامة داخل المدينة، وشهدت المدينة زمن الحكم المصري بعض النشاطات العمرانية.

بدأ الازدهار الحقيقي في البناء بعد حرب القرم سنة(1853م–1856م) خلال عقد واحد من السنين، تم تنفيذ أربعة وعشرين مشروع بناء داخل الأسوار وخارجها، (من بينها) المجمع الروسي

(1) أبو بكر، ألدكتور أمين، يوم القدس، نابلس : جامعة القدس الوطنية،يوم القدس، الندوة الثانية أيار سنة 1996 ص 60.

الضخم ألذي أقيم في منطقة الميدان الكائنة شمال غرب المدينة. إن بناء الكنائس الجديدة والأديرة والكنس والمساجد والمدارس والمستشفيات ودور الأيتام والنزل (الهوسبيسات) والفنادق والقنصليات... الخ، استمر دون انقطاع حتى الحرب العالمية الأولى، بل إن الكنيسة البروتستانتية الألمانية المعروفة باسم كنيسة المخلص، تم تكريسها بحضور الإمبراطور الألماني سنة 1898م. وفي نهاية القرن التاسع عشر أحصى (كينية) Cuinet ووصف مثلا: 42 ديراً مسيحياً و 28 نزلاً(هوسبيس) و 17 مستشفى و54 مدرسة باستثناء المدارس الدينية الإسلامية.

وما إن تم تعبيد طريق بين يافا والقدس، الأمر الذي تسنى معه نقل مواد البناء المستوردة بالعربات دون صعوبة، حتى أدخلت أساليب عمرانية جديدة في الأحياء السكنية خارج البلدة القديمة. ابتداء من سنة 1880م فصاعداً، وقد أصبحت جدران المباني الجديدة أقل سمكاً وصارت الغرف تغطى أرضيتها بألواح خشبية، وتسقف بأعمدة خشبية، ثم بأعمدة حديدية وبلاط حجري، وصارت هياكل الأسطح تلبس بالقرميد، وهكذا نشأت مدنية جديدة أوروبية الطراز جنبا على جنب مع القدس التاريخية. [1]

ومن الأعمال العمرانية التي تمت في عهده ترميم المسجد العمري الواقع قبلي كنيسة القيامة، بحيث أن هناك عدداً من الأبيات الشعرية مكتوبة على الباب الخارجي للمسجد، ويبدو من هذه الأبيات أنها كانت في عهد السلطان عبد المجيد وهي"

أحيا زمان الفتح مسجد قدسنا ... هذا أمير المؤمنين بها عمر

وأعاده بعد اندراس بنائه ... حيا بتأسيس وشيد ما اندثر

سلطاننا عبد المجيد أمده ... بالنصر والتأييد منع نيل الظفر

وأدام طالع نجمه متعاليا ... في كل تاريخ له سعد يشهر

المطلب الرابع: القدس في عهد السلطان عبد العزيز بن السلطان محمود الثاني 1861م - 1876م

تولى الحكم بعد أخيه في أواخر عام 1277 هـ وفي عهده تفجرت ثورة في جزيرة كريت وأخمدت عام 1283هـ / 1863م وتم فتح قناة السويس عام 1285هـ / 1869م وصدرت في عهده مجلة الأحكام العدلية وقانون التجارية البحرية في أوائل عهده، وزار أوروبا وفكر في الاستفادة من خلاف الدول

(1) شولش، اسكندر، القدس في القرن التاسع عشر (كامل العسلي، لقدس في التاريخ،) عمان : عمادة البحث العلمي، الجامعة الأردنية، 1992 م ص 283.

الأوروبية فيما بينها، لكنه وجد أنها تتفق جميعها ضد الدولة لأنها دولة إسلامية، ولم يستطع الأوروبيون أن ينسوا الحقد الصليبي المغروس في نفوسهم، غير أنهم كانوا يختلفون فيما بينهم حسب مصالحهم.[1]

كانت بواكير عهد هذا السلطان التركي أن انفجرت الثورات ضد هذا النظام المترامي الأطراف، وبتشجيع من الدول الغربية، لإضعاف هذا الكيان المترامي الأطراف للانقضاض عليه في ساعة الصفر والقضاء على كيانه، كما يلاحظ بأن هذا السلطان علاوة على انفتاحه على الغرب وبدء تطبيقه للقوانين الحديثة للحاجة إلى هذا النظام في هذه الفترة من تاريخ هذه الأمة، ولإشعار الدول الغربية المتربصة به بأنه بدأ يميل إلى تحديث إدارته وفقا لمآربهم، لم تتوان الدول الغربية العدوة أصلاً،من النيل منه وملاحقته إلى أبعد الحدود.

قام هذا السلطان العثماني بزيارة للدول الأوروبية علّه يجد له فيها نصيراً ويستفيد من خلافاتها لتعزيز جانبه، بيد أنه وجد أن ملّة الكفر واحدة، إذ أن هذه الدول تتفق فيما بينها ضد هذه الدولة الإسلامية، مهما زادت الخلافات بينها.

أيقن هذا السلطان أن الدول الغربية الصليبية بأنها ما نسيت الحقد الصليبي الذي كان معششاً، في أفكار أبنائها فهم يحاربون الإسلام، ومن ينطق باسمه أينما كان وكيفما صار.

كل هذه الأفكار التي حملها، والمباديء التي ارتسمت في ذاكرته لم تثنه عن السير في خطة والده وأخيه وبدأ يطبق النظام الذي اختاره لبلاده، بيد أن المؤامرات والدسائس كانت أكبر مما يتوقع.؟ !

واصل هذا السلطان في توجهاته الإصلاحية صوب هذه البلاد – بيت المقدس – تحديداً وقام بإجراء الإصلاحات اللازمة، وأوصل القدس بالمدن المجاورة ومدها بشبكة من الطرق والمواصلات التي كانت متوفرة في عصره، وكان مما تم إنجازه في عصره في بمدينة بيت المقدس ما يلي:

أولا: في عام 1867 م تم إنشاء الطريق الموصل بين القدس ويافا.

ثانيا: في عام 1870 م تم إنشاء الطريق الموصل بين القدس ونابلس.

ثالثا: إدخال نظام الزي الجديد، ألا وهو لبس الطربوش الذي نقله الأتراك عن اليونان ولبسه أهل القدس كبقية أبناء الوطن التركي عامة،فكان عدد سكان القدس في هذه الفترة 68ألفا.

(1) علي محمد الصلابي سبق ذكره ص 291 .

الفصل الرابع

المبحث الأول

بلدية القدس

المطلب الأول: بلدية القدس في عهد السلطان عبد العزيز

تذكر المصادر أن بلدية القدس تأسست عام 1857 م بأمر من السلطان آنذاك، إلاّ المصادر المرجحة تفيد بأن بلدية القدس تأسست بين عامي 1863 م –1864 م، ويستدل كتاب حاكم القدس العثماني إلى قنصل بروسيا في القدس أنها باشرت أعمالها بالفعل في عام 1867 م أي في عهد السلطان عبد العزيز.

كان إنشاء بلدية المجلس البلدي في القدس موضوع مراسلات بين السلطات العثمانية والقناصل الأجانب في القدس، الذين عارضوا فكرة إنشاء البلدية وأبدوا مخاوفهم من ذلك، بحيث أن هذا الإجراء سوف يعتدي على صلاحياتهم، وطالبوا بإشراك الرعايا الأجانب المقيمين في القدس في المجلس البلدي بحجة أنهم يدفعون ضرائب بلدية.

يستدل من ملفات بروسيا في القدس، أن بلدية القدس باشرت أعمالها بالرغم من احتجاجات القناصل، وأن قراراتها كانت تنقل إلى تلك القنصلية وربما إلى قنصليات أخرى باللغتين العربية والتركية، ومن الجدير بالذكر أنه لم تصل أية مدينة في فلسطين إلى صنف المدن الكبيرة عند صدور القانون عام 1877 م وبذلك لم يتأسس في أي مدينة أكثر من دائرة بلدية واحدة، ومدينة القدس هي المدينة الوحيدة في فلسطين التي زاد عدد سكانها على عشرة آلاف نسمه في بداية القرن الثامن عشر.

... تدل الدراسات المتوفرة على أن العائلات المتنفذة قد سيطرت على بلدية القدس، وتنافست على عضوية ورئاسة المجلس البلدي الذي تعاقب على رئاسته منذ عام 1863م – 1917م 23 رئيسا وقد ترأسه سليم أفندي الحسيني لمدة ثمانية عشر عاماً، وخلفه ولداه في رئاسته وكان رؤساء بلدية القدس حتى عام 1914م من عائلات الحسيني والخالدي والعلمي والدجاني[1]

كانت هذه الفترة من العهد العثماني فترة يجب لفت النظر إليها وما أفرزته من نتائج على وضع القدس بشكل خاص، ولا بد لنا من تثبيت ما قاله(ألكسندر شولش) عن هذه الفترة حيث أورد قائلا:

(1) محمود طلب النموره، سبق ذكره،ص 124.

إن كان ثمة مفترق طرق في تاريخ القدس في القرن التاسع عشر، فينبغي أن نراه في والاجتماعي والاقتصادي والسياسي الإداري الحاسم الذي شهدته فلسطين كلها خلال تلك العقود تحت تأثير سياسة الإصلاح العثمانية والتغلغل الأوروبي، بيد أننا لو نظرنا إلى الوراء في ضوء التغييرات التي أعقبت الحرب العالمية الأولى، لظهر لنا أن سنة 1882 م كانت أيضا نقطة تحول. إن الاحتلال البريطاني لمصر وبداية موجة الهجرات اليهودية الأولى وكلاهما حدث سنة 1882م كانا نقطتي البدء لخطين من التطور، الاستعمار البريطاني من جهة، والصهيونية من جهة أخرى، تحرك كل منهما في باتجاه الآخر والتقيا أخيرا خلال الحرب. وكانت النتيجتان صدور وعد بلفور (2 تشرين الثاني 1917م ودخول أللنبي إلى القدس كانون الثاني 1917م)[1] وما أفرزته تلك الأحداث وما خلفته من عواقب وخيمة على المنطقة بأسرها وضعت أساساتها من تلك اللحظة المظلمة في تاريخ هذه الأمة وكانت النتيجة ما نحيا وما نراه حتى يومنا هذا والقادم ربما يكون أعظم !

المطلب الثاني: صلاحيات بلدية القدس

أعطي المجلس البلدي في مدينة القدس صلاحيات واسعة في حياة الناس اليومية وكان من وظائفه ما يلي:

1. فرض النظام أو القانون على المواطنين: فقد تولت بلدية القدس الحفاظ على النظام والقانون وفي عام 1886م عينت مجلسا مؤلفا من أربعة عشر رجل شرطة، كان من ضمن واجبا تهم القيام بجولات في شوارع القدس، وساحاتها المفتوحة للسهر على رفاهية السكان والإشراف على النظام العام ونظافة المدينة، وكان رجال الشرطة يمنعون إطلاق النار في الليل ويمنعون المرور في الليل في شوارع المدينة لا لمن كان يحمل قنديلا مضاء.
2. الإشراف التام على التعداد السكاني وتسجيل السكان المواليد والوفيات والأجانب الذين كانوا يفدون إلى المدينة أو يعيشون تحت رعاية القنصليات الأجنبية.
3. تنظيم حركة السير والمرور وتسهيل وسائل المواصلات وتنظيم رسوم الأحمال على الدواب.
4. الإشراف على المؤسسات الاجتماعية الخاصة بنزل المعوزين والفقراء والمكفوفين وغيرهم.
5. كانت البلدية تشرف على الطرق والأبنية العامة كالمستشفيات والمدارس والمساجد وغيرها.

(1) الكسندر شولش، القدس في القرن التاسع عشر، من (كامل العسلي، القدس في التاريخ) عمان : منشورات عمادة البحث العلمي، الجامعة الأردنية) 1992م ص 295.

6. الإشراف على الناحية الصحية داخل حدود البلدية كالنظافة ومعالجة المرضى فقد عينت بلدية القدس طبيبا يعالج المرضى من أتباع جميع الديانات مجانا. ثلاث مرات في الأسبوع.[1]

المطلب الثالث: مشاركة أهل القدس في الإدارة العثمانية

يستدل من الدراسات والنتائج المترتبة عليها على أن أبناء بيت المقدس، قد شاركوا في العديد من الوظائف البارزة في الحكم التركي، فكان أبناء العديد من العائلات التي كانت تتولى رئاسة بلدية القدس أمثال عائلة الحسيني والخالدي وغيرهم، كان لهم نصيب في استلام المراكز المختلفة في العهد التركي، حيث أن الحكومة التركية كانت تنظر إلى رعاياها على أنهم أبناء ملّة واحدة، فلم يحرموا من تسلم وظائف هامة في الدولة، كما أن هؤلاء الرعايا كان لديهم الشعور بأن الدولة التركية هي دولتهم الإسلامية السنية.

كان من أبرز الشخصيات المقدسية التي يلقى عليها الضوء في هذه الفترة المصلح يوسف الخالدي حيث شعر هذا المصلح في الفترة التي تفتحت فيها عيناه على ما يحيق ببلده القدس من أطماع وما يحاك للخلافة الإسلامية من مؤامرات أجنبية، فحاول قد المستطاع أن يقف أمام ريح التغيير القادمة على المنطقة وعمل ما بوسعه لتنبيه الناس إلى الأخطار المحدقة بقضيته، وأخذ ينشر أفكاره عله يجد من يسمعه حيث أنه سافر إلى خارج البلاد ونهل من معين العلم الحديث، وانتخب رئيسا لبلدية القدس وعضوا في مجلس المبعوثان العثماني.

تصدى يوسف الخالدي إلى الدفاع عن الدستور بحرارة ضد الإجراءات التعسفية للسلطان وأصبح يعرف بفضل شجاعته أحد أقطاب المعارضة.

تنبه هذا المصلح إلى الخطر الصهيوني، حيث ناشد الصهاينة بواجب مقدس للضمير، وباسم الله أن يتركوا فلسطين لأهلها الفلسطينيين الشرعيين وأن يبتعدوا عن المطالبة بالعيش فيها، ونبههم بأن أهل فلسطين نلن يستكينوا إليهم بيد أن الصهاينة واصلوا العمل في إقناع الحكومة العثمانية وقدموا الإغراءات المادية الهائلة للعثمانيين على أمل الوصل إلى مآربهم.

(1) المصدر نفسه ص 129.

المطلب الرابع: القدس في عهد السلطان عبد الحميد الثاني 1293 هـ - 1326 هـ/ 1876م – 1909م

هو السلطان عبد الحميد بن السلطان عبد المجيد العثماني. اعتلى العرش وهو في الرابعة والثلاثين من العمر.

نشأ السلطان عبد الحميد في القصور السلطانية وتفتحت عيناه على هذا الملك العريض الذي بدأت تناوشه أنياب الطامعين من داخل البلاد وخارجها، وشاهد بأم عينية التآمر على هذا الميراث العريض.

استهل هذا السلطان حياته الخاصة بالدراسة على أيدي نخبة من أشهر رجالات عصره في العلم والأدب والخلق، فتعلم اللغة العربية واللغة الفارسية بالإضافة إلى لغته الأم.

أحب السلطان عبد الحميد العلم والإطلاع على ثقافات الأمم الغربية، فسافر إليها وتجول في أنحاء مختلفة من الدول الأوروبية واطلع على ثقافات الغرب والصناعات المتقدمة فيها، وسافر إلى مصر وشاهد الحضارات المختلفة.

كما هو الحال في عصرنا الحاضر عندما هيأت الدول الاستعمارية الغربية نفسها لاحتلال بلاد العراق، فتارة تدعي بأنها تريد إنقاذ الأمة من حكامها وأخرى تريد أن تحرر الشعوب المقهورة ومرة أخرى تريد أن تتخلص من أسلحة هذه الدول، والحقيقة التي لا مراء فيها بأن شهية الاستعمار والعداء المستحكم في نفوس الدول الاستعمارية هو الدافع الرئيسي من وراء هذه الحروب لاستغلال ثروات البلاد وطاقات العباد وأنهم لا يبغون أحداً من دول العالم الإسلامي أن يرفع رأسه أو يكون له كيان أو وجود لأنهم يعتبرونه خطرا عليهم.؟! فما أشبه اليوم بالبارحة...!. لأن ملة الكفر واحدة.

اعتلى السلطان عبد الحميد سدة الحكم، في الوقت الذي بدأت فيه الدول الأوروبية تنافس على اقتسام " الرجل المريض " عندما أوشكت الدولة العثمانية على السقوط، وشهد المنتصف الثاني من القرن التاسع عشر محاولات يائسة للمحافظة على الإمبراطورية المنهارة ليتسنى للدول ألأوروبية الحصول على حصة تتلاءم مع تطلعاتها.

عقدت الاتفاقيات بين تلك الدول المتنافسة حتى لا تستأثر واحدة منها بحصة الأسد من أملاك الدولة العثمانية.

كان التنافس على أشد ما يكون بين بريطانيا وفرنسا وروسيا وألمانيا وحتى أمريكا التي بدأت تتطلع للانطلاق خارج حدودها والاستحواذ على مصالح لها في بلاد الشرق العربي والإسلامي[1].

حاول السلطان عبد الحميد أن يصلح شأن البلاد، وأن يسير على الدستور الذي أنشأه بيد أنه عاد وأخذ الأمور جميعها بيده، فزادت الاضطرابات واشتعلت الثورات في العديد من الولايات وبدأ السوس ينخر جسم هذه الدولة المترامية الأطراف داخليا وخارجيا بدعم من الدول الاستعمارية، فنشبت أظفار الصهيونية التي وجدت لها متنفسا في أحضان الغرب الذي شجعها لأنها الحامية لمصالحة في الشرق الإسلامي بعد أن انهار الوجود الغربي إبّان الحروب الصليبية.

لسنا بصدد سرد الأحداث التي جرت في عهد هذا السلطان بشكل عام، ولكن ما يهمنا في فترة حكمه بيت المقدس التي نحن بصدد الحديث عنها في هذا البحث، وما هو موقف هذا السلطان العثماني، وبالرغم مما قيل عنه ومهما كانت النتيجة التي حدثت له ولدولته التي تآمر عليها الشرق والغرب في سبيل اضمحلالها، فيكفيه شرفاً وكرامةً أن هذا السلطان كان من أشهر السلاطين والزعماء الذين قدموا في عصرهم لفلسطين خدمة كبرى، ولم يرضخ ولا بأي حال من الأحوال ولا بأي شكل من أشكال التهديد تارة أو الإغراء أخرى لمطالب الصهيونية العالمية، ولا لإغراءاتها التي عرضها عليه هرتزل[2] من دعم مادي ومعنوي لهذه الدولة التي شارفت على الانهيار بسبب سوء الوضع المالي والتردي الاقتصادي، فكان موقفه ثابتا يعتز به على مدى التاريخ، وأنه آثر أن يعمل المبضع في جسمه على أن يفرط بذرة واحدة من ثرى هذه البلاد التي بذل من أجلها المسلمون دمائهم.

المطلب الخامس: بواكير التغلغل اليهودي في القدس

لم يترك اليهود فرصة إلاّ اغتنموها من أجل تثبيت تواجد لهم في القدس، فجرت محاولات يائسة من قبل زعماء الحركات الصهيونية منذ أمد بعيد، وحاولوا بجميع الأساليب الوصول إلى القدس، "فكان منتفيوري على رأس أولئك اليهود الذين حاولوا الاستيطان في القدس بالذات وعرف فيما بعد باسم حي "يمين موشي" الذي أصبح نواة للجزء اليهودي من المدينة الذي شيد خارج سورها، وكان تدخل

(1) ألنتشه، رفيق شاكر– السلطان عبد الحميد الثاني وفلسطين،الخليل : دار المستقبل 1997 م.ص81.

(2) من أقوال السلطان عبد الحميد المأثورة بشأن فلسطين (انصحوا الدكتور هرتزل : لا أستطيع أن أتخلى عن شبر واحد من الأرض فهي ليست ملك يميني بل ملك شعبي. لقد مقاتل شعبي في سبيل هذه الأرض ورواها بدمه، فليحتفظ اليهود بملايينهم، إذا مزقت إمبراطوريتي فلعلهم يستطيعون آن ذاك بأن يأخذوا فلسطين بلا ثمن. ولكن يجب أن يبدأ ذلك التمزيق أولا في جثتنا) إنني أخبرهم أن عليهم أن يستبعدوا فكرة إنشاء دولة في فلسطين لأنني لا زلت أكبر أعدائهم.

القنصل البريطاني في الأمر فاتحة لتدخلات عديدة مماثلة في المستقبل وإشارة للدور الذي قدر لبريطانيا أن تلعبه في دعم الكيان الصهيوني في فلسطين وحمايته، خلال الحكم البريطاني، وجاءت إقامة ذلك الحي بمثابة وضع حجر الأساس لأحياء مماثلة، حيث قام يهود القدس حتى سنة 1892م بإنشاء ثمانية أحياء سكن أخرى في الناحية نفسها من المدينة أقيم جزء منها بمساعدة صندوق مالي(مزكيرت موشي – ذكرى موسى) الذي أسس تخليداً لذكرى منتفيوري وترأسه ميخل بينس."[1]

"لم يكد السلطان عبد الحميد أن يبدأ في الإصلاح حتى بدأت تتصدى له قوى الفساد من الداخل وقوى الاستعمار من الخارج، وقد كانت فلسطين تحظى بالأهمية القصوى لدى السلطان نظرا لمتابعته مخططات الاستعمار والصهيونية، التي كانت تعمل على تحويلها إلى وطن لليهود.

وقد اتخذ السلطان لمنع تنفيذ هذه المخططات كل الوسائل الممكنة، من إصدار تشريعات وقوانين وإجراءات إدارية وسياسية تحول دون وصول هؤلاء المستعمرين إلى أهدافهم، وكان من أولى الخطوات الهامة التي اتخذها في هذا السبيل، هي ربط سنجق القدس مباشرة بالباب العالي حتى يشرف بنفسه على منع تغلغل النفوذ الاستعماري والصهيوني في فلسطين، بعد أن زاد النشاط في هذا الاتجاه.

إن هذا النشاط كما يرى "هو غارت" أحد المختصين في أمور الشرق الأوسط خلال الحرب الأولى – إن الاستيطان – هو الذي" دفع السلطان عبد الحميد عام 1887م إلى جعل القدس سنجقا مستقلا عن ولاية دمشق ومتصرفية لها اتصال مباشر بالباب العالي".

كانت فلسطين في ظل الحكم العثماني تابعة لأقسام الشام الإدارية، وكانت الشام وقتذاك تتألف من خمس ولايات، أما فلسطين فكانت تقسم كوحدة إدارية إلى منطقتي الشمال والجنوب حيث كانت في الجنوب متصرفية القدس المستقلة، وتشمل أقضية: القدس، يافا، غزه، الخليل، بئر السبع، وتخضع مباشرة إلى الحكومة في الآستانة'.

كان السلطان عبد الحميد الثاني يعرف مدى فساد الإدارة الحكومية، وانتشار الرشوة والمحسوبية عند كبار الموظفين، ولذلك كان يحرص على الدوام اختيار الموظفين الأكفاء المخلصين لتعيينهم متصرفين عل سنجق القدس، حتى لا يقعوا فريسة إغراءات قناصل الدول الأجنبية، فيغضوا النظر عن دخول المهجرين اليهود إلى فلسطين وشراء الأراضي الحكومية لهم.

على إثر المذابح التي ارتكبتها روسيا القيصرية ضد اليهود وإخراجهم من أراضيها، توجه قسم منهم صوب فلسطين، وعندما أحس السلطان أن سيل الهجرة قد بدأ يتدفق إلى فلسطين أرسل في 29

(1) مصدر سبق ذكره ص 97.

حزيران 1882م رسالة إلى متصرف القدس يطلب فيها أن يمنع اليهود الذين يحملون الجنسيات الروسية والرومانية والبلغارية من الدخول إلى القدس."[1]

المطلب السادس: السلطان عبد الحميد يقف شخصيا أمام الزحف اليهودي

لاحظ السلطان عبد الحميد مدى التغلغل اليهودي في القنصليات الأجنبية التي أخذت ترعى مصالحهم، وتغطي على هجرتهم إلى فلسطين، فاتخذ الإجراءات التالية:

1. قام بإصدار التشريعات وسن القوانين التي تمنع الهجرة اليهودية إلى فلسطين وأنه لا يسمح لهم بالدخول إليها أو الإقامة فيها إلا كزوار أو حجاج وحدد مدة الزيارة بثلاثة أشهر.
2. عيّن متصرفاً[2] مستقيماً وحازماً على القدس يطبق سياسة الباب العالي ويقف حائلا أمام المد الصهيوني.
3. في عام 1887 م وجه السلطان عبد الحميد أمرا إلى متصرف القدس ويافا بأنه لا يسمح لليهود بالدخول إلى فلسطين إلا حجاجاً أو زواراً على أن يدفع الواحد منهم 50ليره تركية لقاء تعهده بمغادرة البلاد خلال 31 يوما.
4. عمد السلطان عبد الحميد إلى إبلاغ قناصل الدول التي ترعى مصالح اليهود، بأنه منزعج من الهجرة اليهودية إلى فلسطين ومكوث اليهود فيها بعد انتهاء مدة التصريح الممنوح لهم.
5. في عام 1882م أصدر السلطان عبد الحميد قانونا يمنع فيه اليهود الزائرين فلسطين تصريحا للزيارة لأكثر من ثلاثة أشهر، على أن يصدر التصريح من السفارة العثمانية في البلاد التي يأتي منها اليهود.
6. نتيجة لشدة الضغط الأجنبي على الحكومة التركية، وتهريب أعداد كبيرة إلى فلسطين عن طريق القنصليات الأجنبية، فقد أوفد السلطان عبد الحميد شخصية صارمة متصرفا على القدس وهو "توفيق باشا" مما تسبب في ثني اليهود عن الاقتراب خلال هذه الفترة إلى نواحي القدس وتوجهوا صوب الشمال.
7. في عام 1898 م أصدر السلطان عبد الحميد قانوناً جديداً يمنع فيه اليهود من التوجه إلى القدس.
8. في عام 1891 تجاوب الباب العالي مع مطالب وجهاء القدس بمنع هجرة اليهود إلى فلسطين وشرائهم الأراضي.

---

(1) المصدر السابق – ص 165.

(2) كان اسم هذا المتصرف رؤوف باشا 1876 م –1888 م.

9. في عام 1901م وعلى إثر ازدياد الهجرة اليهودية إلى فلسطين عن طريق القنصليات الأجنبية وتمشيا مع رغبة أهل البلاد الفلسطينيين الذين لم يقفوا مكتوفي الأيدي أمام هذا الغول القادم، فقد صدر أمر بمنع فيه دخول اليهود إلى فلسطين، إلا إذا كان سيغادر خلال ثلاثة أشهر من قدومه إليها.

الوضع الإداري في القدس في عهد السلطان عبد الحميد :

كانت هذه الفترة من العهد العثماني تعج بالمحن والأحداث والصراعات على جميع الجبهات الداخلية والخارجية، فعلى الصعيد الخارجي كان من المعلوم أن الدول الأجنبية وعلى رأسها بريطانيا وفرنسا كانتا تتحين الفرصة للانقضاض على هذه الدولة واقتسام أملاكها وإنهاء حكمها، أما على الصعيد الداخلي، فقد كانت الحروب الأهلية والصراعات الدامية وعدم الاستقرار الأمني يسيطر على الوضع وكان نفوذ الدولة ضعيفا.

نظام العشائر: وفي جبل القدس كانت الخلافات بين القيسيين واليمنيين أشد ما كانت عليه في جبل نابلس، وشملت تلك الخلافات أنحاء جبل القدس، وكان من زعماء القيسيين في جبل القدس آل سمحان (بنو حارث) والبراغثة (بنو زيد) وآل اللحام في العرقوب. كما كان من زعماء اليمنيين آل أبي غوش (بنو مالك) الذين شمل نفوذهم بيت لحم وجزءا من بني حسن ورام الله والبيرة. بيد أن الحكومة التركية أيقنت ما يجره هذا النظام القبلي العشائري واستطاعت بعد أن طبق السلطان عبد الحميد الدستور من القضاء على النظام العشائري ووضع الترتيبان الدستورية لجميع أرجاء الممالك العثمانية.

المطلب السابع : بلدية القدس ومهامها

من الصعب تحديد التاريخ الدقيق لتأسيس البلدية في فلسطين،ويذكر أحد المصادر أن بلدية القدس تأسست عام 1857م بأمر من السلطان إلا أن مصادر أخرى تشير إلى أنها تأسست بين عامي 1863م – 1864م ويستدل من كتاب حاكم القدس العثماني إلى قنصل بروسيا في القدس أنها باشرت أعمالها بالفعل قبل عام 1867م.

كان إنشاء المجلس البلدي في القدس موضوع مراسلات بين السلطات العثمانية والقناصل الأجانب في القدس، الذين عارضوا فكرة إنشاء البلدية، وأبدوا مخاوفهم من أن ذلك سوف يعتدي على صلاحياتهم، وطالبوا بإشراك الرعايا الأجانب المقيمين في القدس في المجلس البلدي، بحجة أنهم يدفعون ضرائب بلدية، ويستدل على أن بلدية القدس باشرت أعمالها بالرغم من احتجاجات القناصل وأن

قراراتها كانت تنقل إلى القناصل باللغتين العربية والتركية.[1] علما بأن بأنه لم تصل أي مدينة في فلسطين إلى مصاف المدن الكبرى، عندما تم إصدار قانون البلديات عام 1877م إلاّ – مدينة القدس – فهي المدينة الوحيدة التي تجاوز سكانها العشرة آلاف في هذه الفترة.

وقد خضع نظام البلديات إلى قوانين وأنظمة حددها القانون من عدد أعضاء المجلس البلدي ومؤهلاتهم والصفات الواجب توفرها في رئيس المجلس البلدي ومؤهلاته وكيفية الانتخابات وطريقة الانتخاب أو التعيين حيث تعلل الباحثة(روث كارك) Ruth Kark فتذكر بأن بعض رؤساء البلديات كانوا يعينون من قبل الوالي التركي والبعض الآخر كانوا ينتخبون من أبناء الشعب، وتذكر أنه من بين الستة عشر رئيسا لبلدية القدس خلال المدة بين عام 1863م –1963م كان سبعة منهم قد عينوا من قبل الحكومة التركية والآخرون تم انتخابهم.

تدل الدراسات أن العائلات المتنفذة قد سيطرت على بلدية القدس وتنافست على عضوية ورئاسة المجلس البلدي الذي تعاقب على رئاسته منذ تأسيسه منذ عام 1863م – لغاية عام 1917م ثلاثة وعشرون رئيساً، وقد ترأسه سليم أفندي الحسيني لمدة ثمانية عشر عاما، ثم خلفه ولداه في رئاسته وكانوا رؤساء بلدية القدس حتى عام 1914م من عائلات الحسيني والخالدي والعلمي والدجاني، وكان تعيين رئيس البلدية وتركيب المجلس البلدي يعكس التوازن الداخلي بين تلك العائلات ومن بين ستة عشر رئيسا تعاقبوا على بلدية القدس بين عام 1877م – 1914م كان ستة من آل الحسيني وأربعة من آل العلمي، واثنان من آل الداودي واثنان من آل الخالدي.

وقد مثّل المرحوم يوسف ضيا باشا االخالدي القدس في المبعوثين الذي أنشأه السلطان عبد الحميد الثاني.

وفي كتاب قدس الأمس يصف د: يلين D. Yellin الاتفاقات والتحالفات التي كانت تتم بين عائلات وطوائف القدس من أجل اقتسام مقاعد المجلس البلدي. وكيف كان يتم تقاسم تلك المقاعد بين العائلات مرة كل سنتين. كما يصف كيف اهتمام أهل القدس بالبلدية كمؤسسة عامة في ذلك الوقت الذي اتصف بالتأخر والنزاع بين عائلات القدس على رئاسة المجلس البلدي وترقبها لنتائج تعيين رئيس البلدية بعد انتهاء الانتخابات البلدية عام 1898م.[2]

(1) محمود طلب النموره مصدر سابق،ص 119.

(2) المصدر نفسه ص 125 .

كان من مهام بلدية القدس خلال هذه الفترة تقييد جميع أنواع أملاك البلدية في سجل خاص ويقيد في سجل آخر عدد النفوس والمواليد والوفيات. كما كان من مهام أعمال أمين صندوق البلدية تقييد الواردات والمصروفات الخاصة بالبلدية.

كان من مهام بلدية القدس الحفاظ على القانون والنظام داخل حدود البلدية، فكانت تشرف على ا لأماكن العامة كالمقاهي والفنادق والمسارح والأسواق ومحلات الألعاب، وتم تعيين أربعة عشر شرطيا للحفاظ على الأمن والنظام داخل حدود البلدية وكان من مهام أعمال هؤلاء الرجال منع إطلاق النار ليلا وعدم المرور في الشوارع بدون حمل قنديل لمن يسير ليلا.

كانت بلدية القدس تعتني بالشؤون الاجتماعية والحفاظ على طرق المواصلات والصحة العامة، وقد تم تعيين طبيب لمعالجة المرضى من جميع التبعات مجانا ثلاثة أيام في الأسبوع وقد تم إنشاء مستشفى ضم 30 سريرا وعيادة خارجية. كما كانت بلدية القدس تقوم بتطعيم المواطنين ضد الأمراض وتقضي على الكلاب الضالة وتغلق المدينة أمام الزوار أثناء انتشار الأوبئة لمنع انتشار الأمراض المعدية بين المواطنين. كما كانت تساعد في تأثيث المدارس وتوسيع الطرق وتنظيمها ومساعدة الجيش أثناء تواجده أو مروره منها. كما كان من مهام البلدية الإشراف على ألأبنية والإنشاءات وتنظيم حركة السير وتوسيع الطرق وتسوية الأرصفة وهدم الأبنية الآيلة إلى السقوط والمحافظة على النظافة والتخلص من النفايات. أي أن البلدية كانت تقوم بالعديد من الخدمات التي تقوم بها البلديات في وقتنا الحاضر وتؤمنها للسكان مقابل رسوم يدفعها المواطنون لتغطية النفقات.

كان لبلدية القدس نظام مالي من واردات ومصروفا ت وهي على النحو التالي:

تتألف واردات بلدية القدس من المواد التالية:

1- الرسوم التي خصصتها الدولة.

2- الضرائب المختلفة

3- الغرامات.

4- رسوم القيان والميزان والمكاييل والعقود والذبحية ورسوم بيع أو شراء المواشي.

5- الإعانات.

كانت بلدية القدس – قبل نشوب الحرب العالمية الأولى تجمع عشرة أصناف من الضرائب بالجنيهات التركية ويبين الجدول التالي معدل الدخل السنوي لبلدية القدس من الضرائب قبل عام 1914م بالجنيهات التركية[1]

(1) = = ص 132.

الرقم	الضريبة	معدل الدخل السنوي	
		من	إلى
.1	ضريبة طريق يافا القدس	1375	1500
.2	ضريبة القنطار	2300	2500
.3	ضريبة يومية على العربات	700	750
.4	ضريبة الجلود المصدرة	500	
.5	ضريبة الذبحية	800	900
.6	ضريبة العقارات	300	400
.7	ضريبة المحروقات	1000	1200
.8	ضريبة عبور نهر الأردن	1650	1700
.9	ضريبة تحسين الطرق	400	450
.10	ضريبة رش الطرق بالماء	80	

يعلل ألكسندر شولش في كتابه" تحولات جذرية في فلسطين" عن وضع القدس في هذه المرحلة بقوله " لم يكن للقدس في هذه العقود التي ندرسها بالنسبة للاقتصاد الفلسطيني أهمية كبيرة لا كموقع تجاري ولا كمركز للإنتاج الحرفي، فقد كانت المدينة تعيش في المقام الأول من أجل الأماكن المقدسة، للمسلمين والمسيحيين واليهود، ومن المؤسسات التي قامت أو أنشئت بسبب هذه الأماكن أو من الحجاج أو الزوار الذين كانوا يقصدونه، ومنذ السبعينات في القرن التاسع عشر بدأت المؤسسات السياحية تهتم بالمسافرين الذي لا يرغبون وحدهم بالسفر إلى فلسطين ولا يرغبون أيضا في الانضمام إلى قطاعات جيش -الحملة الصليبية السلمية – فكان الحجاج ينزلون في الأديرة "الهوسبيسات ".[1]

لقد استفاد أهالي القدس والمدن المجاورة من حركة تدفق الأموال على القدس من الدول الغربية خلال هذه الفترة وزادت حركة البناء والعمار، وأن المتتبع لجداول مهن البناء في القدس يلاحظ التوسع المضطرد في الدخول للحرفيين والتجار، وكانت نسبة الحرفيين والتجار غالباً ما تكون في أيدي المسلمين حيث أنهم العدد الأكثر في فلسطين وبيدهم الميزان التجاري والحرف والصناعات الكثيرة، ومما زاد التوسع العمراني في القدس في هذه الفترة البناء خارج السور بحيث أصبح البناء الحديث طابعاً جديداً مميزاً لهذه المدينة الخالدة.

(1) شولش، الكسندر، تحولات جذرية في فلسطين، عمان: دارا لهدى، الجامعة الأردنية، نقله عن الألمانية الدكتور كامل العسلي سنة 1990 ط1. ص 145.

ومما زاد في تدفق الأموال على القدس ارتباطها بميناء يافا البحري الذي كان ثغر فلسطين الجنوبي، علاوة على إنشاء خط سكة الحديد الذي يوصل إلى القدس الذي كان تشغيله في عام 1892م.

وإن جاز لنا أن نضع الأمور في نصابها، فيجب علينا أن نعطي كل ذي حق حقه، وألا نتجنى على العثمانيين ونسير في ركب من يسمهم بالقصور والتفريط بالمقدسات الإسلامية، بل ويكفي السلطان عبد الحميد فخراً وقوفه أمام الحملات الصهيونية التي تعرض لها من أجل فلسطين، وعدم التفريط ولو بشبر واحد منها وأن من أسباب زوال ملكه هو التمسك بمبدأه في الحفاظ على إسلامية فلسطين وعد التفريط بها، كما أن العثمانيين أدركوا أطماع الغرب وبالتعاون مع اليهود في القدس، حيث أدركوا هذه الحقيقة مما حدا بهم إلى جعل القدس سنجقا تابعا مباشرة إلى الباب العالي، لتظل تحت أنظار وإشراف الحكومة العلية في اسطنبول مباشرة. كما قام العثمانيون بتقنين زيارات الأجانب إلى القدس، حيث لم يسمح للزائر الإقامة في هذه الديار أكثر من ثلاثة أشهر، ويرهن جواز سفر الزائر غير المسلم ويمنح بطاقة حمراء لمدة ثلاثة أشهر، أي طيلة مدة إقامته في فلسطين ليعود من حيث أتى.

علاوة على حفاظ العثمانيين على القدس من ناحية دينية والإشراف على الأماكن المقدسة وإعمارها، فإننا نخلص بالقول بأن العثمانيين مفترى عليهم من قبل المغرضين وأنهم لم يتهاونوا أو يقصروا في الحفاظ على هذه البلاد، لأنها تعتبر بلاد إسلامية ولا تفريط فيها إطلاقا، بيد أن توازن القوى والعداء المستحكم في نفوس الدول الاستعمارية والنظرة العدائية للإسلام والمسلمين وحب السيطرة وشهوة استغلال ثروات هذه البلاد إبان أوج الانفتاح الغربي على العالم الشرقي، زاد في توجه هذه الدول صوب هذه الديار، وهناك عامل هام يجب إغفاله، ألا وهو الصهيونية العالمية التي كانت وما زالت تغذي روح الحقد لدى الغرب المسيحي الذي يرجع في أصوله الثقافية إلى الفكر الصهيوني الذي تغلغل فيه، حيث أنه جعل من هذه البلاد بعامة ومن بيت المقدس بشكل خاص محط أطماع الصهيونية العالمية التي مدت أذرعها في جميع نواحي الحياة الغربية، فقد عملت على إنهاء الحكم العثماني وانقطاع الدولة العثمانية عن دينها وعقيدتها بحيث تجلى هذا العمل بتأسيس جمعية تركيا الفتاة وبدعم صهيوني غربي بالإضافة إلى قوة نفوذ يهود الدونمة في تركيا الذين كان لهم نفوذ كبير خاصة في منطقة سالونيك.

"مما هو جدير بالذكر أن موقف الدولة العثمانية كان يتميز بطابع خاص من النشاط الصهيوني والدولي على السواء، فقد أصر السلطان العثماني عبد الحميد على رفض المشروع الصهيوني سواء في مباحثاته مع هرتزل أو مع الوسطاء الأوروبيين، لأن القدس مدينة مثل مكة على حد قول فامبري "كان يتميز بطابع خاص من النشاط الصهيوني والدولي على السواء، فقد أصر السلطان العثماني عبد الحميد على رفض المشروع الصهيوني، سواء في مباحثاته مع هرتزل أو مع الوسطاء الأوروبيين لأن القدس مدينة مثل مكة على حد قول فامبري "vambery" وتجسد هذا بإصدار الفرمانات السلطانية المتلاحقة التي

تمنع دخول اليهود والأجانب إلى فلسطين إلا للزيارة ولمدة محددة – كما ذكرنا سابقا -ونظراً لخطورة الحركة الصهيونية ودور الدول الأوروبية في تشجيعها ودعمها فقد كان السلطان يخشى أن تصبح فلسطين " جبل لبنان " وأن تلعب الدول الأوروبية في فلسطين نفس الدور الذي لعبته في لبنان، وذلك على حد قول (Bein Herzl)

ويرى السلطان كما يذكر في يومياته من أن (هدف الدول الأوروبية كان خلق المشاكل الداخلية والفتن في إمبراطوريتنا لأنها تريد أضعافنا) ولأن السلطان كان زعيم الجامعة الإسلامية كما أن الدين الإسلامي كان يمثل روح العصر في الدولة العثمانية ويسيطر على أكثر العثمانيين، فلا يعقل والحالة هذه أن يتخلى عن الأرض المقدسة لشعب غريب عن المنطقة، كما أنه لا يريد إيجاد أقلية جديدة فمشاكله مع الأقليات في إمبراطوريته تكفيه وهي كثيرة، وقد استمر في موقفه هذا من الصهيونية والهجرة اليهودية حتى قيام ثورة الإتحاد والترقي عام 1908م وخلعه في عام 1909 م.[1] إن جاز لي أن أختم هذا الفصل من تاريخ القدس في عهد الدولة العثمانية، فإنه لا يخفى على أحد بأن القدس كانت من ضمن الخلافة الإسلامية العثمانية، وأن سلاطين العثمانيين أيقنوا الأخطار التي كانت تحيق بالقدس خلال مراحل متعددة، وزاد هذا الخطر في الآونة الأخيرة حينما ثقلت المسؤولية وأخذت حراب الغرب تنهش في جسم الدولة العثمانية فأجمعوا أخيراً على تسميتها بالرجل المريض، فكان الكل ينتظر ساعة خلاصة، ليتسنى له أخذ نصيبه من هذه الكعكة، وكان على الجانب الآخر، ألا وهو التقاء المصالح الصهيونية والاستعمارية في هذه المنطقة، ولا يخفى على بال أحد بأن الدور النشط الذي تمتعت به الصهيونية العالمية في هذه المرحلة كان له نصيب الأسد في إذكاء نار الحروب وتأجج الصراعات العالمية آنذاك من أجل تحقيق أهدافها في فلسطين، فعملت جاهدة وعلى أيدي رجالاتها المتفننين في السياسة والدهاء مع استثمار الأموال الصهيونية في تحقيق أهدافهم للوصول على مآربهم في هذه الديار، وفعلا تحقق لهم ما أرادوا بعد أن أشعلوا نارا أكلت الأخضر واليابس طيلة أيام تآمرهم وما زال التآمر حاصلا حتى أيامنا هذه.

المطلب الثامن: الأعمال التي تم إنجازها في عهد السلطان عبد الحميد الثاني في القدس

1-في عام 1901 م تم إيصال المياه إلى القدس من مياه أرطاس.

2-في عام 1907 تم إنشاء السبيل الواقعة بجانب السور بباب الخليل حيث أقيم هذا السبيل في عهد المتصرف أكرم بك.

---

(1) الحلاق، حسان علي، موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية من سنة 1897 م – 1909 م، : (دار الهدى، جامعة بيروت العربية، 1978 م)ص10.

3-تجديد سبيل قايتباي الواقعة بين الصخرة المشرفة وباب القطانين.
4-بناء المدرسة الرشيدية المقابلة لباب الساهرة خارج السور، وسميت بهذا الاسم نسبة إلى رشيد بك متصرف القدس زمن السلطان عبد الحميد سنة 1906 م
5-أنشئت السكة الحديدية بين يافا والقدس سنة 1892 م.
6-تم إنشاء المستشفى البلدي الكائن غربي المدينة عند الشيخ بدر سنة 1891 م.
7-تم إنشاء برج على السور فوق باب الخليل سنة 1909م.
8-أنشأ سبيلا على الباب المذكور سنة 1907 م.

obeikandl.com

الفصل الخامس

المبحث الأول

انحسار العهد التركي

من المعلوم أن الدول كالإنسان، كما وصفها ابن خلدون، بحيث تبدأ الدولة طفلا ثم شابا فتهرم وتموت، وهذا ما غاشته الدولة العثمانية العلية، وقد أصبحت تعرف في نهاية أيامها بالرجل المريض.الذي شارف على الموت وكان مشيعوه يترقبون ساعة وفاته كي ينقضوا على أملاكهبين الدول الغربية على القدس فتأسس العديد من القنصليات الأجنبية غير التي كانت قائمة سابقا. كما أن السلطان عبد الحميد أصبح في بؤرة الحدث مما أثر هذا سلبا على مركزه فنشبت الجمعيات والمؤسسات التركية التي تنادي بالثورة على نظام الحكم،وكان على رأس هذه الجمعيات "جمعية الإتحاد والترقي التركية" التي اندس بين أعضائها العديد من يهود الدونمة الذين تأثروا بالفكر الصهيوني وأرادوا الانتقام من السلطان عبد الحميد لمواقفه الصلبة من الحركة الصهيونية ورفضه منح اليهود وطنا قوميا لهم في فلسطين، فاستغل هؤلاء اليهود الفرصة وانضموا على هذه الجمعية التي أطاحت بالسلطان عبد الحميد عام 1908م واعتلى العرش بعده أخوه السلطان محمد رشاد.

المطلب الأول: القدس في عهد السلطان محمد رشاد الخامس14 نيسان 1325هـ - 1908م

في عهد هذا السلطان أعلنت الحرب الكونية الأولى التي وقف فيها الأتراك بجانب حلفائهم الألمان، العدو التقليدي للإنجليز والفرنسيين وخاضوا غمار هذه الحرب الخاسرة، فكان من أهم ما قام به في القدس خلال فترة حكمه التي شهدت الأحداث الجسام ما يلي.

المطلب الثاني: استقبال الراية النبوية في بيت المقدس

دخلت تركيا الحرب العالمية الأولى في عهد السلطان محمد رشاد الخامس، وأعلنت حركة الجهاد ضد دول الحلفاء، وبثت الفكرة في أنحاء العالم الإسلامي آنذاك.ولتأجيج الحماس الديني لدى المسلمين، فقد جرى نقل الراية النبوية من المدينة المنورة إلى بيت المقدس، وقد جرى احتفال مهيب بهذه المناسبة حضرة أعداد كبيرة من المسلمين، وقد تم نقلها بواسطة القطار إلى دمشق وجرى لها احتفال مهيب يليق بقدسيتها حيث كان في استقبالها جمال باشا وهيئة أركان حربه.

نقلت الراية من دمشق إلى القدس حيث توقفت في نابلس لتأدية صلاة الجمعة ودخلت القدس بتاريخ 20 كانون أول 1914موأقيم احتفال كبير في ساحة قبة الصخرة المشرفة وختم الاحتفال بإقامة

الصلاة في المسجد الأقصى المبارك، ليتم نقلها إلى ساحة المعركة في السويس، بيد أن الغاية التي أحضرت من أجلها الراية النبوية لم تتحقق وكانت النتيجة ما جرى !.[1]

المطلب الثالث: العهد العثماني في أيامه الأخيرة في بيت المقدس أيار 1917 - 1917/12/9م

1)في أوائل أيار من العام 1917م سافر قنصل الولايات المتحدة الأمريكية في القدس إلى بلاده، بمناسبة دخول بلاده الحرب ضد ألمانيا وحلفائها، فاستولت الدولة العثمانية على عمارات الأمريكان ورقعت عليها العلم العثماني واستخدمتها لمصالحها.

2)في 10 تنشرين الثاني غادر الجنود الألمان القدس، كما غادرها مأمورو الملكية وأعضاء الديوان العرفي ودائرة الرديف والمستشفيات... فانفرط عقد الحكومة ولم يبق في القدس إلا المتصرف والقومندان العام والمفتش وكان لذلك اليوم شأن عظيم.

3)في 15 تشرين الثاني سافر قنصلا دولتي ألمانيا والنمسا من القدس إلى بلادهم.

4)في 18تشرين ثاني أعلن قومانـدان القـدس أن المدينـة دخلـت في دور الحـصار، وفي 16 منـه أبعدت الدولة رؤساء الأديان غير المسلمة إلى دمشق، وفي 20 منه أعلن المتصرف أن الطريق بين نابلس والقدس مغلقة لأن الجيش البريطاني وصل إلى قرية النبي صموئيل.

5)وفي كانون الأول اشتدت المدفعية الإنجليزية على القوة العثمانية المستحكمة في أطراف المدينـة وكانت الطائرات الإنجليزية تحوم أسرابا فوقها. [2]

(1) مصطفى مراد الدباغ، مصدر سابق ص 157 .

(2) سبق ذكره، ص 167 .

opelkandi.com